سعود الصاعدي

الساحلي

رواية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الذين دَرَجُوا على ساحات الحيّ ،فمنحوه طمأنينةً و جنونًا كان لهما أكبر الأثر في أنْ أرى عالم الحيّ يتّسع بين الواقع و المتخيَّل ..إلى رفاق جيلي الذين تشكّلت بهم رؤيتي إيجابًا و سلبًا ...

أهدي هذا العمل بكل ما فيه من خطأ و صواب .

سعود

مَعْبَر :

تقول لي
آخر الآيات في صحفي:
ما بين ضوأين
تحلو ظلمة النفقِ !

محمد عبد الباري

(١)

لا يدري كيف جاء إلى هنا؟ ولا ما الذي جاء به إلى حيث هذه البقعة من هذا الحيّ المغلق؟ يؤمن بالأقدار إيمانًا لا تشوبه شائبة من أسئلة كثيرًا ما تعترض طريق اليائسين، ولأنّه ليس من هذا الصنف الذي يعترض أقداره؛ فقد كانت أسئلته التي تخصّ مجيئه إلى الحيّ تأخذ طابع التفكّر في تقلبات الحياة واستبطان أسرارها.

شيخوخته وإيمانه كانا يعززان فيه قيمة التأمّل في الأحداث أكثر من التأمّل في تضاريس المكان من حوله. مع ذلك بدا سؤاله هذه الليلة متعلقًا بالمكان، فما إن أطفأ سراج البيت، بيته الذي ابتاع أرضه في زاوية من الحيّ قريبًا من منكب الجبل الضخم، حتى دعاه هذا السكون المهيب إلى أن ينظر إلى حرف الجبل الذي يشبه سورًا عظيمًا قد أغلق الحيّ من أعلاه، وكأنما شعر أنّ بين مصيره و هذا المكان علاقة ما.

يدرك أنه يخطو خطوات العمر الأخيرة، حتى لو تأخّر الأجل مسافة أطول مما يتوقّع، فالمسافة التي قطعها منذ ولادته إلى هذه اللحظة تشي بأنّ الباقي من عمره مهما طال لا يستحقّ أن يلقي له بالا، وهذا ما دعاه إلى أن يختار هذا الشعب المغلق من أعلاه مكانًا لآخر محطة من حياته.

كان الحيّ، بالفعل، مكانًا متواطئًا مع طبيعته في هذه السنّ المتأخّرة، جعله يأنس بوحدته في صندقته المنزوية تحت منكب الجبل، يساعده في ذلك أنّه ليس واحدًا من أفراد القبيلة التي تسكن الحيّ، وهذا ما جعل حياته ذات نمط واحد، حيث اعتاد أهل الحيّ أن يروه في صورة عابر صامت، يجيء من مكان غامض ويستقرّ في مكان غامض، أما المسافة التي كان يعبرها بين المكانين فكانت مسافة زمن أكثر مما هي مسافة مكان. كان يخرج من بيته صباحًا ويعود مساءً، دون أن يعلم أحدٌ ما الذي وراء هذا الحدث اليومي الرتيب، ودون أن يسأله أحد عن ذلك أيضًا.

حين أطفأ السراج، وقد تهيأ لنومه المبكر كعادته كل مساء، أغمض عينيه ثم فتحهما على قريته الكائنة بمقربة من الساحل، في مدينة ينبع، فتذكّر طفولته، و جزءًا من أيام شبابه، قبل أن يودّع قريته إلى مكة، فرأى صورًا حافلة بالحركة و النشاط، والغناء الساحليّ، حيث الترنّم بكسرات الينبعاويّة. تذكّر تلك الأيام وما فيها من صخب، وما كان يجري من خصومات بين الصبية، ولم تغب عنه تلك النقاشات الساخنة المحتدّة حول أصول القبائل، و ما يتم من تراشق بين أبناء قبيلته و أبناء الساحل، كما كانوا يسمّونهم. يذكر

أنّه ،في تلك الفترة،كان أحد زعماء القبيلة من الصبية، كما يذكر الفتى الأسمر مشعان، صاحب التعليقات اللاذعة، الذي كان ينتصر لقبيلتهم حين يحتدم النقاش وتكون السخرية هي السلاح الأخير قبل إعلان العراك بالعصيّ و الحجارة، ولا تزال بعض تعليقاته تثير سخريته وضحكه رغم كل هذه المسافة الزمنية التي قطعها. دعاه ذلك إلى أن يهمس بينه و بين نفسه:

"رحمك الله يا مشعان .. ليتك تعلم أني صرت في هذا المكان طرش بحر، مثل صدقي و أبناء عمه".

بدت له عيرة "طرش بحر" ليست سبّة، وإن كان تراث أبناء القبائل يعدها شتيمة لأولاد الحضر، ليس في قريته الساحليّة فحسب، بل حتى في مكة، حين انتقل إليها في أواخر شبابه، حيث سمعها كثيرًا في حلقة الخضار بجرول، حين تحدث خصومة بين بدويّ من أطراف مكة و حضري من الأهالي الساكنين قريبًا من الحرم.

لا ينكر أنه كان يتعاطف مع البدو بحكم أنّه ابن قبيلة عريقة، وكان يرى هذه الخصومات ،التي تحدث في أسواق مكة وشوارعها، امتدادًا لمعارك القرية، وقد كان أحد أبطالها قبل أن يندسّ بشيخوخته في زاوية هذا الحيّ، وقبل أن يشعر في غربته هذه بأنّه ليس أكثر من طرش بحر، لكنه يقول في نفسه:

"ماذا يعني طرش بحر؟ وهل هناك أشرف من أن تكون مبعوثًا للبحر تنقل أسراره لليابسة، وهو ما ينبغي أن يفعله كل شخص سكن بجوار البحر و فهم لغته ، و عرف ماذا يحبّ البحر من غناء ؟ ".

الكسرة ترنيمة البحر، فهي ليست شعرًا بالمعنى الذي يفهمه أبناء البادية، لكنها رسالة قصيرة فيها روح البحر و نسائمه، و هي الكلام القليل الذي يغني عن الكلام الطويل. نعم كان غنيم طرش بحر، رسالة قصيرة، كسرة عابرة ، وقد استقرّ في هذا الحيّ أخيرًا بخصائص كسرة ينبعاويّة في عزفها ونزفها. بدا له هذا التفكير محفّزًا لأن يقلب الطاولة على أبناء القبائل، أو أبناء اليابسة ،كما قرر أن يسمّيهم من هذه اللحظة، فدعاه ذلك إلى إعادة تركيب العيرة في شكلها الجديد، "طرش برّ".

" هل هناك أسوأ من أن يكون المرء طرش برّ، ضبًّا هائما في الصحراء لا يجد قطرة ماء، أو سحليّة تحاول عطشًا أن تكون ساحليّة. نعم كم هو الفرق شاسع بين سحليّة ناشفة، وساحليّة تفيض ماءً وغناءً".

أخذ يتداعى مع أفكاره وخواطره وشعر أنّه، برغم وحدته في هذا الحيّ المغلق، كأنما هو رسول البحر إلى هؤلاء الناس، وأنه محمل بأسرار تسكن في داخله كما تسكن نفائس البحر في الأعماق، لكن لم يحن الوقت لتبليغها بعد، أو أنّه اختار أن يبلّغها بطريقته الخاصّة في حركة ذهابه و إيابه صباح مساء، في شكل مدّ و جزر، وحسبه من هذا ما كان يحفظه في سنّ طفولته عن أبيه، يوم أن سأله عن سرّ مدّ البحر وجزره، فقال له:

"هكذا يتحدّث البحر".

كان البحر بالنسبة لهم ملهم الحكايات و الأساطير التي غالبًا ما تأتي من الساحل البعيد ، في الطرف الآخر من البحر ، و كان أبناء ينبع ، في ذلك الوقت ، يتلقون كل ما يأتي من الجهة الأخرى على أنه يقين لا مرية فيه ، فالغموض الذي يلفّ البحر في لحظاته الساكنة ينسج حكاياته بما يتناسب مع حكمة شيخ وقور ، و حين يهيج البحر تأخذ الحكايات منحى آخر أشبه بهيجان أمواجه ، و لذلك كثيرا ما كان والد غنيم الساحلي يردد ،كلما تحدّث عن البحر أنّه يحرّض على الحبّ تارةً و على الحرب تارةً أخرى ، و لهذا يحمل البحر في ذاكرة الينبعاوية معنى الشجن العميق فيتخذونه صدرًا لأسرارهم ، كما يحمل معنى الغربة و الفقد فيصبح حينئذٍ أشبه بالخصم الغامض الذي يتحيَّن فرصة الانقضاض على أهل القرى الساحليَّة .

يذكر غنيم الساحلي كيف أنّ الأمهات يقلقن على أبنائهن من البحر ، لأنه، في نظرهنّ ،غير مأمون الجانب . ربما كان غموض غنيم في هذا الحيّ المغلق امتدادًا لغموض البحر بين صمته الهادئ و ثورته المتوقّعة ، و لهذا السبب بدا ، في نظر أهل الحيّ ، وديعًا من جهة ، لكنه مخيف و ينطوي على أسرار غريبة من جهة ثانية .

(٢)

لم يكن غنيم الساحلي معنيًّا، من الأساس، بأخبار العالم، وهو يفتح مذياعه ليستمع إلى طرف مما يذاع من الأحداث المحلية و العالمية، بل على العكس يرى في هذه الأخبار ثرثرة لا داعي لها، لكنه مع ذلك لا يتخلى عن عادته التي تضبط له توقيت يومه في الضحى مرة و قبيل موعد نومه في المساء مرة ثانية. كان يتعاطى هذا الموعد مع جهازه الأثير إلى قلبه كما لو كان دواء فرضه عليه الطبيب. والحق أن غنيم الساحلي، بقصد أو بغير قصد، يتعاطى هذا النوع من متابعة أخبار العالم بهذا الشعور، فهو، ككل كبار السن، لا يهمه من هذه العادة اليومية في الاستماع لما يذاع من أخبار و أحداث، قريبة أو بعيدة، سوى شعوره أنه جزء من العالم.

ينظر غنيم الساحلي إلى تلك الثقوب التي تبث صوت مذياعه كما لو كانت نافذة يخرج منها العالم المخبوء داخل الغطاء الجلدي، وكثيرا ما كان

يقول، وهو يعلق مذياعه على طرف سريره: "قدري أن أعلق العالم بأذنه لأستمع إلى صخبه في هذا المكان الصامت"؛ فهذه العلبة الصغيرة هي التي بقيت له من العالم، ولم يعد يربطه به سوى هذا الصوت حين يشعره ضجيجه أنه ليس وحده، أما ما يحدث فلا علاقة له به، فماذا يعني بالنسبة له ارتفاع سعر البرميل، أو حتى انفجاره في سفارة أمريكية؟. بالفعل ليس ثمة أمر آخر يعني غنيم سوى أن يشعر بنفسه داخل هذه الوحدة، فلم يكن الحي الذي يسكنه يمثل له عالما خاصا فضلا عن أن يتسع ليشمل العالم الأبعد الذي تركه خلفه جاثما على الساحل .ومع أنه من مواليد ينبع و قضى كل أيام صباه هناك بين النخل والبحر إلا أنه لا يحب أن يلتفت إلى عالمه القديم لئلا يوقظ جرحه النائم في أعماقه، ولولا ذاكرته التي تحتفظ بمشاهد غنية من الأحداث والناس لأغلق هذا الزمن و لم يلتفت إليه، بيد أن شيخوخته وعزلته في هذا الشعب المكي تفرضان عليه أن يتذكر مرغما، إضافة إلى أن بعض الأحداث الجديدة التي يعبرها ،وهو يقطع طريقه بين المسجد الذي يعمل فيه و بيته القابع في زاوية الحي، توقظ ما نام من أحداث في أقصى ذاكرته. لا شيء يقلقه أكثر من هذه الذاكرة التي تشده للماضي رغما عنه إلى درجة جعلته يتساءل لِمَ لم يكن كبقية رفاقه ممن خرفوا في آخر العمر فأغلقت نوافذهم الخلفية؟.

كان يشعر أن هذه الذاكرة يد غليظة تشده إلى مكان لا يبرحه، ومع أنها تشده إلى مكان صباه إلا أنه لا يحب أن يراه من ثقوب الذاكرة، لأن

ذلك، بحسب رأيه، يريه صور الأشياء دون أن يمنحه الفرح الذي بداخلها، ولعل هذا سبب آخر من الأسباب التي تجعله يملأ فراغ الصمت بأحداث العالم الذي يتسلل إليه من ثقوب مذياعه. يعرف أن كبار السن في هذا الحي يشبهونه في هذه الصفة، ويدرك أنهم ينطوون على تفاصيل موجعة مثله، لهذا يملؤون فراغهم الصامت بأحداث المذياع التي تأتي من الطرف الأبعد من العالم.

هذا الحبل الوحيد الذي يضطره أحيانا للاستئناس بكبار السن من رجال الحي، خصوصا جاره في الطرف المقابل لبيته، برغم أنه لا يلتقيه إلا في الطريق باتجاه المسجد، فقد كانا معا يخرجان في وقت واحد وإن كانا يذهبان إلى مسجدين مختلفين.

كان كلما التقى جاره بدأ في حديث داخلي بينه وبين نفسه لا ينقطع حتى يصل إلى مسجده المخبوء في زاوية خلف البيوت الرابضة على سفح جبل ابن عمر.

يحدث نفسه كثيرا إن كان مرزوق المذن، كما يسميه أهل الحي، صورة طبق الأصل له من الداخل أم أنّه شعور الشيخوخة فحسب ؟ .أحيانا يجزم جزما قاطعا أن لا فرق بينهما، فرحلة العمر واحدة.و في لحظات العمر الأخيرة يتشابه الناس كما كانوا أطفالا، يتشابهون في كل شيء: ملامحهم، تجاعيدهم، خطواتهم البطيئة التي تجس نبض الأرض، أعماقهم وما يضج فيها من شعور، خلافا لمرحلة الشباب التي تختلف فيها الرغبات والملامح.

يؤمن بهذه الفكرة و تكاد تصل عنده إلى قانون اجتماعي لا يتخلّف، ومع ذلك لا يدفعه إيمانه هذا إلى التواصل مع كبار السن الذين يعتقد أنهم يشبهونه في كل شيء بسبب أنه لم يأت إلى هذا الحي ليعقد علاقات مع أحد، وإنما على العكس ليبقى غريبا في جسد الحي، خارجا عن النسيج الذي يربط أهله، وبرغم ما يبديه من وداعة حين يلتقي أحدا من رجال الحي، إلا أنه بحديثه المقتضب الذي لا يتجاوز كلمات يعطي إشارة للآخرين أنه جاء هنا ليعيش وحده. حتى قطعة الأرض التي امتلكها في هذا الحي كان قد ابتاعها من مالكٍ يسكن خارجه، هو أحد أبناء عمومته الذين جاءوا إلى مكة مبكرين قبل أن يفد الناس إلى الشعاب المكية، كما يبدو في زيه كذلك حيث يعتمر عمامة بيضاء مخططة بالأسود مرتديا "صدريّة" لا ينزعها في الصيف ولا في الشتاء، وفي يمينه عصا هي العلامة الوحيدة المشتركة بين كبار السن في مرحلة الشيخوخة.

ما سوى ذلك يبدو كل شيء من الخارج لافتا إلى أنه خارج مألوف الحي، حتى الصبيان يدركون أنه رجل غامض، إذ لا يجرؤ أحد منهم على التسلل إلى بيته وقت غيابه، برغم أن هواية الصبيان ،في تلك المرحلة من الزمن،القفز بين البيوت والتسلل إليها ،و ربما العبث ببعض ما فيها وقت غياب أهلها، غير أن الأمر يختلف لديهم عندما يتعلق الأمر ببيت غنيم الساحلي. بيت يلفه الغموض كصاحبه، ترتاده الجن والأشباح كما يعتقدون، حتى نساء الحي لم تغب عن ذاكرتهن الشعبية أن هذا البيت صالح لحكايات

الترهيب قبل النوم حين يردن قص حكاية مفزعة تجبر صبيانهن على النوم، فكل الأخطار التي تتسلل إلى الحي مساء تبدأ من تلك الزاوية القصية، ومن ذلك البيت المهجور، بحسب ما يرين، حتى صار مجرد الوصول إلى أعلى الحي حيث يسكن غنيم الساحلي خروج عن العالم أو وقوف على حافة الموت كنهاية حتمية لآخر العمر، الأمر الذي تشكّلت به مخيلة الصبيان في ذلك الوقت، إذ حين يحدث الموت، النادر جدا في تلك الفترة، تبدأ ذاكرة الطفولة تشير ببوصلتها إلى طرف الحي الأعلى، فتلوح صورة الموت في شكل غراب يقع على حافة الجبل الشرقي، كما تصدر أصوات النذير من هناك، فالثعالب التي تصوِّت بالموت كثيرا ما يصطادها مسلط ببندقيته في تلك الجهة من الحي، وهو شاب ماهر في صناعة الشَّرَك لكل الحيوانات المؤذية، خصوصا تلك التي تزعج هدوء الحي في نومته الهادئة، وكان مسلط الوحيد القادر على مكر الثعالب بمكر مثله، وهو لا يبعد كثيرا عن غنيم الساحلي في غرابته ونزوعه إلى الوحدة والخلوة الاختيارية وإن كان يختلف عنه في العمر وفي أنه من النسيج الاجتماعي لأهل الحي، بيد أنه، برغم ذلك، يسير في الطريق نفسه الذي سلكته خطوات غنيم الساحلي، إذ يبدو خارج مجتمع الحي، حيث لم يستوعبه أحدٌ حتى أسرته الصغيرة التي لا تشعر به إلا لحظة دويِّ بندقية انطلقت رصاصتها باتجاه كلب عقور أو ثعلب ينذر بالموت كما كان يعتقد أهل الحي، وربما بسبب هذا الدور الأسطوري الذي يقوم به مسلط حظي باهتمام أهل الحي لاحقًا ،و كان ذلك مبررا كافيا لأن يكون

ضمن النسيج، خلافا لغنيم الساحلي الذي لا يزال في نظر أهل الحي عابر طريقٍ يجيء من عالم غامض ويستقر في عالم غامض، كما لا يزال الصمت هو السور الذي يمنع رجال الحي من دخول عالمه، كما يمنع الصبية من اقتحام منزله في غيابه.

(٣)

في الحي تكثر الأحاديث حين يفد غريب. ليس على مستوى الكبار فحسب، بل حتى على مستوى الصغار أيضا، غير أنّ طرق التعبير عن هذا الرفض تختلف بحسب المرحلة العمرية ، وهو رفض لا يستمر طويلا، بل يتضاءل مع الزمن حتى يتلاشى، فيصبح الغريب مألوفا بغربته و ربما كانت غربته سببا في تقديره واحترامه من الجميع فيما بعد.

حين وفدت أسرة الشامسي حدثت عراكات بين صبية الحي وأبنائه معلنة رفض هذا الاحتلال لمساحة من الأرض، بحسب شعور الصبية وإن لم يعبّروا عنه، لكن خصوماتهم المستمرة كانت تعبّر عن هذا الشعور، وكان الكبار يعبّرون بطريقتهم حين يضطرون الوافد الجديد إلى الانتظار ريثما تفرغ المجالس من تفرس ملامحه و قص واستقصاء أخباره، وربما خلقت الأساطير حول سبب انتقاله إلى الحي حتى إذا فرغت الحكايات منه ومضغه الحي بيسر وسهولة صار جزءا من جسد الحي وانضم إلى المجتمع الشعبي. وهذا ما حدث، بالفعل، مع أسرة الشامسي، فبرغم أنهم ينتمون إلى القبيلة نفسها إذ

يلتقي الأجداد في طرف أبعد من النسب، إلا أن مجتمع الحي عبّر عن هذا الرفض في معارك الصبيان من وراء الجدر والبيوت، فتحوَّل الحي إلى ميدان من المبارزات والحذف بالحجارة. كان الشامسي رجلا يتمتع بقوة لافتة، تظهر في ملامحه الصارمة وندوب وجهه التي ترسم صورة فارس لا يشق غباره، وقد ورث عنه أبناؤه هذه القوة فبدت في عضلاتهم التي لم تكن تخفى على الصبية بيد أنهم كانوا يسوسونهم بالحيلة حينا، وبعدم المواجهة المباشرة حينا آخر، بالإضافة إلى لغة الانتماء للمكان التي كانت كفيلة بإدخال الرعب في قلب كل غريب مهما كانت قوته وشدة بأسه، وكان مما تمتاز به أسرة الشامسي تلك البراءة التي تشيع في جميع أفرادهم، وهي البوابة التي نفذ منها أبناء الحي إلى خصومهم الجدد فاستطاعوا من خلالها السيطرة عليهم و إبقائهم وافدين تحت شروط الإقامة.

لم يكن الشامسي غريبا عن الحي، بشكل مطلق، كما هو الحال لغنيم الساحلي، فهو، في الأخير، من أبناء العمومة، وابن القبيلة، ولا بد أنه سيصبح جزءا من الحي مع مرور الزمن، كما أن أية أسرة تمتلك عددا وافرا من الأبناء الذكور لابد و أن تمتزج بالمكان حين تمتد علاقاتهم مع أبناء الحي، وهذا ما كانت تفكّر فيه أسرة الشامسي بعقل واحد، فقد بدت الأسرة تنسج خيوطها في النسيج وتمتد ببطء، بيد أن الذي حدث كان مخالفا للتوقع حين صار بيت الشامسي ملتقى للصبيان الذين كبروا وهم لا يزالون يشعرون أن ظل البيت يمتد لهم في كل أنحاء الحي.

حين دخلت أسرة الشامسي الحي خفتت الأصوات عن غنيم الساحلي، وظل خارج ذاكرة الحي فترة يسيرة حتى أعادته إلى واجهة المشهد زفة كانت قد عبرت الحي من أسفله إلى أعلاه. كانت الزفة تحتفل بعروس سمراء لم ير أحد وجهها لكنهم قدَّروا ذلك استنادا إلى الوجوه السمر التي كانت تحتفل وترقص بطريقة تشي بانتمائها إلى مجتمع غريب على مجتمع الحي. دخل الضجيج مرتديا أصوات المزامير مع ألبسة قريبة جدا من لباس غنيم الساحلي، و لأن الزفة عبرت الحي عبورا سريعا، كما لو كان غنيم الساحلي قد تشظى في مجموعة أفراد تسرّبوا في عروق الحيّ، و في غموض يشبه غموضه، ثم اجتمعوا قريبا من بيته،ليؤدوا رقصة المزمار في ليلة استثنائية لم يشهد الحيّ مثلها و لم يعتد عليها ، الأمر الذي جعل أهل الحي يربطون بينها وبين غنيم الساحلي. بعضهم جزم أن هذا الرجل الغامض سيحتل الحي قريبا، وأن هذه مناورات ذكية يجس بها نبض الحي وردة فعله، وما هذه الزفة إلا طريقة من طرقه التي يحاول بها رسم خارطة الحي ومعرفة مكامن القوة والضعف فيه، أما البعض الآخر فقللوا من حجم المبالغة وإن كان الشك في أمر غنيم الساحلي لم يزل . ساعد على ذلك أن غنيم الساحلي يسكن وحده، وأنه لن يظل على هذه الحالة طوال عمره، إذ على الأقل لابد أن له جماعة يؤسس لهم مكانا يرثونه من بعده. كثرت التنبؤات و الأقوال حول ما يحدث، ولم تخرج الزفة السمراء من الحي حتى تركت أثرا عميقا في تصور أهله عن غنيم الساحلي وعن ما قد يلحق الحي من أذى بسببه، الأمر الذي دعا

بعض الصبيان أن يقرروا الاستعانة بمسلط و بندقيته، فإذا كان غنيم الساحلي ذئبا، أو حتى ثعلبا، فإن مسلط قادر على إنهاء أمره بحيلة جديدة من حيله التي يصطاد بها الثعالب. بيد أن هذا الرأي بدا يصغر حين تحدث زعيم الصبية المستكاوي، نسبة إلى لون ثوبه، حين سخر من هذا الرأي قائلا:

"كلما صعب عليكم أمر ناديتم مسلط، وأظنكم ستنادونه حتى لو قفل الدولاب على رأس أحدكم. الحل عندي أنا، ما رأيكم في أن نغامر و نقتحم بيت الساحلي في غيابه؟."

كان هذا الرأي ليس غريبا على مغامرات المستكاوي الكثيرة ، فتاريخ الحي القريب يحفظ له مغامرات بعضها نجح و بعضها الآخر فشل، ولا يزال الصبية يذكرون قصته الطريفة مع التيس الفحل ، يوم دخل الحي في غفلة من أهله، وأحدث ضجيجا استمر أكثر من سنتين، نطح فيها من نطح، حتى تجرأ على كبار السن، ودخل إلى البيوت حيث النساء، فما كان من المستكاوي إلا أن أظهر شجاعة نادرة حين تفاخر أمام الفتيات وأمرهن أن يغلقن الغرفة عليه وعلى التيس كي لا يجد مهربا، فكانت النهاية أن خرج التيس سالما و بقي هو في الغرفة مغشيا عليه.

حين تذكّر أحد الصبية هذه القصة قال ساخرا:

"انتبه يا مستكاوي .. ما كل مرة تسلم الجرة."

غير أن المستكاوي بدا مصرًّا على رأيه، فاقتحام البيت لم يكن لاكتشاف حقيقة الساحلي فحسب، وليس امتدادًا لتلك القصة الطريفة التي

حدثت مع التيس، وإنما لأن هذه المغامرة الجديدة تعدُّ الصبية في مستقبل الأيام لأن يكونوا جنودًا في العسكرية يجيدون اقتحام الحصون، كما يحدث في المسلسلات التاريخية والفتوحات الإسلامية.

كان المستكاوي قد كبر و بدأ يستوعب ضرورة القيام بالأدوار البطولية وعدم الاعتماد على بندقية مسلط التي لا تصلح إلا لقتل الكلاب والثعالب، وكان أكثر ما ساعد المستكاوي في هذا التفكير ذهابه مؤخرا مع أبيه حيث يعمل في إصلاح الطرق في طريق الكر، حيث التقى بعض أسنانه من الفتيان فشعر أنه أمام أناس لهم طريقتهم التي لا تشبه طريقة أبناء الحي، سواء في الحديث أو في ما ينبغي أن يفتخر به الصبيان في هذا العمر، حين سمع أحدهم يقول:

"عندما أكبر سأكون جنديا في الجيش، سألبس بدلة العسكرية الملونة، وأقتحم الحصون والقلاع".

كان شابا من مدينة الطائف قد اعتاد على رؤية الحصون الجبلية، وكان المستكاوي قد رآها حين صعد جبل الهدا مع أبيه، فعاد إلى الصبيان يقص لهم ما رأى ويروي بطولات لم تحدث إلا في مخيلته، وقد سنحت الفرصة ليثبتها على أرض الواقع أثناء غياب الساحلي عن بيته، خصوصا أن أهل الحي لن يعدُّوا هذا من الأذى، وسيعتبرونها بطولة من بطولات المستكاوي الجديرة بالتقدير، لكشف حقيقة الزفة السمراء التي عبرت الحي واختفت سريعا.

وافق أكثر الصبية على هذه المهمة واشترطوا أن تكون سرا حتى لا تمنعهم أمهاتهم، كما اشترطوا أن تكون صباحا حين يغادر الساحلي بيته، ليضمنوا عدم وجوده من جهة و يستأنسوا بنور الصباح من جهة ثانية .

(٤)

لم يستطع أحد من رجال الحي إخفاء امتعاظه منذ حدثت حادثة الزفة، فالجميع بدوا غير راغبين في بقاء الساحلي، خصوصا أنه لا يتواصل مع أهل الحي، كما أن عزلته بدون زوجة زاد الطين بلة وجعله محل قلق مستمر ،ذلك أنّه قد يشكّل خطرا على الحي وأهله،كما يعتقدون، وقد ازداد القلق منه عندما صار حديث الناس في البيوت وفي المجالس، غير أن الحياد الذي يصبغ كل تصرفات الساحلي في الحي، وهذا الصمت الذي يحميه من أن يتسلل إليه أحد.كل ذلك جعل الحكم عليه صعبا، فربما كانت كل هذه المخاوف أوهاما، بل إن الزفة نفسها ليست دليلا كافيا لإدانته، فلم يجزم أحد جزما قاطعا أن للساحلي علاقة بها، وكونها حدثت بجوار بيته لا يبرر نسبتها إليه، فالساحلي وإن كان غموضه سببا في النفرة منه إلا أن كثيرا من رجال الحي يشهدون أنه منذ سكن لم يؤذ أحدا، ومن الطبيعي أن يكون الغريب قليل الحديث، قليل التواصل مع الناس.

كانت مثل هذه القناعات تدور على ألسنة البعض أثناء الأحاديث التي أعقبتها الزفة الغريبة على الحيّ . هل كان ربط الزفة بالساحلي بسبب أنه

يعيش بلا زوجة؟ ربما كان هذا أحد الأسباب، غير أنه لا أحد من أهل الحي يعرف السر الذي يخفيه الساحلي في هذا الجانب. نعم هناك بعض الإشاعات التي ازدادت رواجا بعد حادثة الزفة عن أن الساحلي لا يرغب في النساء، وأنه منذ نشأ وهو على هذه الطريقة ، ما يعني أنه من الممكن أن يكون غير طبيعي وهنا موضع القلق، فالرجال الذين لا يحبون النساء غالبا ما تكون تصرفاتهم مخيفة، فقد يكون سفاحا أو (نمنم)، وقد كانت حكايات النساء تتعامل معه على أنه من هذا الصنف، وأن بيته ملىء بالقدور والنيران التي تشتعل ليلا، وبرغم أن كل هذه الحكايات من نسج الخيال، فلم يحدث أن فُقِدَ أحد من الحي ليكون بمثابة الحبل لهذا الافتراض الأسطوري، إلا أن تحويل الساحلي إلى كائن أسطوري لم يأت من فراغ، فلولا أنه غريب داخل الجماعة، محايد في موقفه من كل ما يحدث في الحي، لما صار مثيرا للجدل، وقد زاد كل هذا الأمر تعقيدا حادثة الزفة.

كانت طبيعة الشِّعب الجغرافية بهيئته التي تمكِّن أهل الحي من معرفة كل داخل و خارج، بسبب المدخل الوحيد الذي هو بوابة الدخول و الخروج معًا، قد جعلت منه أشبه ببيت كبير لعائلة واحدة، ومن طبيعة هذا الصنف من الأحياء أن يتحسّس كل ما فيه، وأن يرفض كل محاولة للحياد أو العزلة، فبمجرد ما يفد أي ساكن جديد، لابد، في البدء، من محاربته و رفضه، ثم قبوله بعد أن يعلن انتماءه من خلال التواصل ومد جسور العلاقات، أما الحياد في حي كهذا، فهو، في حقيقة الأمر، إعلان الانحياز ضد الحي وأهله.

من أجل هذا هضم أهل الحي أسرة الشامسي، وبرغم ما حدث من معارك إلا أنها صارت، فيما بعد، وقود تعارف وتآلف، حيث صار أبناء الشامسي من أكثر أولاد الحي انتماء وتفاعلا مع ما يحدث من مناسبات و علاقات اجتماعية، الأمر الذي لم يحدث مع الساحلي، ربما بسبب كبر سنه، أو حرصه هو على أن يكمل ما تبقى من عمره بلا أصدقاء، إضافة إلى ما يعتري علاقات الكبار من فتور في آخر العمر، حتى على مستوى الإخوة الذين عاشوا تحت سقف بيت واحد.

كانت ظروف الساحلي كلها تعزز جانب العزلة فيه، فهو لم يكن ذا إخوة من الأساس، ولم ينجب من زوجته الوحيدة التي فقدها في شبابه في مرض مفاجئ جعله ينتقل إلى مكة خروجا من المكان الذي يحتفظ ببقاياها، خصوصا تلك البقعة التي تشرف على البحر من سفح الجبل في مدينة ينبع، حيث مسكنه القديم الذي لا يزال يحتفظ بهيكله المهدم كشاهد على زمن مضى.

لم يكن الساحلي حين ترك قريته في مثل سنه الآن، فقد جاء إلى مكة مبكرا، غير أنه لم يأت إلى الحي إلا بعد أن أفنى كل شبابه في حي جرول، في تلك الأزقة القريبة من الحرم. هناك كان يعمل في خدمة بعض تجار الأقمشة النسائية، و قد ساعدته هذه المهنة على أن يعرف من صفات النساء ما زهّده فيهن، وما جعله يصرف رغبته إلى التبتل الدائم، مكتفيا بتجربته الأولى مع زوجته التي فارقته قبل أن يكتمل عامه الأول معها. كانت زوجته ابنة عمه

الوحيدة، كما كان ابن عمها الوحيد أيضا، و قد عاشا معا منذ طفولتهما تحت سقف بيت واحد بسبب وفاة عمه مبكرا، وكانت رغبة أبيه التي كثيرا ما يرددها أمامهما معا هي أن تمتد الأسرة من طريقهما، فهما الطريق الوحيد ليمتد مع أخيه الراحل في سلالة النسب. يذكر أن أباه قال له مبديًا رغبته في تثبيت الجذور :

" أرغب أن ينتسب لي ولد أخواله هم عمومته، ففي البادية حين يكون الخال هو العم يكون ذلك أثبت لشجرة العائلة" .

الأخوال هم من يحدّدون مستقبل الولد في نظر أهل البادية وحين يكون الزوجان أبناء عمومة ينشأ الولد في بيئة خالصة من أولاد الجد الواحد، وبذلك يضمن أبوه أن هذا الامتداد الذي سيكفله زواج ابنه من ابنة أخيه لن يذهب بعيدا عن الأسرة الأصيلة في عراقتها ونسبها، فقد كان من الواضح أن تلك الخصومات القديمة بين أبناء النخل وأبناء البحر هي التي أوحت إلى أبيه هذا الاشتراط، ففي مدينة كمدينة ينبع التي تقع على الساحل، ليس من المستبعد أن تحدث خصومة بين اليابسة و الماء، أو بين النخل و البحر، ترتدي هذه الخصومة انتماء كل فصيل من القبائل والأسر التي تسكن المدينة.

كان أبناء البادية يعتقدون أن البحر هو الذي ألقى بهذه الأسر الغريبة إلى الشاطئ كما يلقي بزبده، في حين يرى أبناء الساحل أنهم أولى بهذه المدينة التي تنام وتستيقظ على ساحل البحر، وكان غنيم الساحلي زعيم الصبية في البادية في معركتهم مع أبناء الساحل، فيما كان مشعان لسانهم

الساخر الذي يصنع الطرائف و يرسم الصور الساخرة لخصومهم، ويصل الأمر، في بعض الأحيان،إلى أن يؤلِّف الأساطير أو يلتقطها من أفواه كبار السن، وخصوصا تلك الأسطورة الساخرة التي صنعها من مخيلته حين ذكر في سخرية لاذعة أن جد أبناء الساحل كان طحلبا دفعته موجة إلى الساحل فنبت على أطراف البحر، وأن الشمس حين سقته بضوئها تمزق وصار مجموعة طحالب تكوَّنت منها شجرة القبيلة الساحلية، ولابد أنهم في يوم من الأيام سيعودون من حيث جاؤوا إلى أصولهم الطحلبية.

كان يريد أن يجعل هذه الأسطورة الساخرة في مقابل النخل، الشجر الذي يتَّفق الجميع على أنه شجر المكان الأصلي وأنه لو لم يكن كذلك ما نأى عن البحر ونبت في البرية المقابلة، وقد كان ذلك كافيا لأن ينتسب أبناء البادية إليه بل وينسبون المدينة له، حيث ينبع النخل، مدينة غنيم الساحلي، قبل أن يأتي إلى مكة، فينتسب إلى ساحل البحر حين لم يجد أحدا سواه في هذا الحي ينتمي لمدينة بحرية.

يذكر غنيم الساحلي هذا كله بحزن بالغ كلما شعر بوحدته في الحي المكي، داخل هذا الشعب، غير أنه ،هذه المرة، شعر بقسوة المصادفة التي خرجت إليه من ثقوب المذياع في برنامج صباحي يحمل عنوان كسرات ينبعاوية، سمع فيه كسرة كانت من نتاج تلك الفترة التي تلونت بالصراع العنصري، حين سجل مجنون القرية، كما يسمونه، موقفه في كسرة تناقلها الكبار والصغار، وشاعت بين أبناء المدينة، وها هي تخرج إليه اليوم من

ثقوب مذياعه مرتدية صوتا ساحليا: " يا بحر لا يختلف ظنّك /في ناس ما تقدّر الإنسان / ساحلك يشهد على فنّك .. لو الوطن صار فيك اوطان " .. يذكر جيدا هذه الكسرة و كيف أنها أحدثت ضجة في ذلك الوقت، حيث اتهم بعض الشعراء الكبار من أبناء الساحل أنه أراد تروجيها على لسان المجنون لتكون موقفا احتجاجيا على ما يحدث من صراع عنصري، في حين ذهبت بعض التوقعات إلى أن غنيم نفسه هو من كتبها وأرسلها على لسان المجنون بعد وفاة أبيه وقرب رحيله من القرية، خصوصا بعد أن شعر أنه فقد الحبل الذي يربطه بقريته ونسبها، وقد ساعد على ذلك وقفة أهل الساحل معه في وفاة أبيه وزوجته ونشاط العلاقات بينه وبين الساحليين قبل أن يودع القرية ويرحل.

(٥)

منذ أن قرَّر المستكاوي اقتحام بيت غنيم الساحلي وهو يشعر بقلق و خوف، فموافقة رفاقه جعلته يحمل أعباء هذا القرار، خصوصا أنه كثيرا ما يتهم بالسخرية من كل شيء، حتى شاع بين أبناء الحي أن كل قراراته و بطولاته ينبغي أن تحمل محمل السخرية والمزاح، فلم يعد أحد يثق بنهاية ما يريد فعله، وكان هو من شكّل شخصيته على هذا النمط الهزلي بمبالغاته وتعليقاته حين يتعلق الأمر بأي حدث يكون فيه طرفا.

كان أكبر خطأ ارتكبه،في حياته، أنه حمَّل شخصيته أعباء المستقبل حين رسم له هذه الملامح الساخرة في طفولته، فصارت هذه الشخصية قيدا يحمله حتى بعد أن شعر بالبلوغ يتسرب في مفاصل جسده وفي كل مساماته.

حتى طريقة اكتشافه الدخول في مرحلة البلوغ كانت ساخرة هي الأخرى، حين أحس بذلك المس الكهربائي فجأة في عراك مع إحدى فتيات الحي بعد أن ألقته أرضا. يومها لم يعد للعراك مع الفتيات، وقد انسحب بصمت، لكن تلك الصورة لم تغادر مخيلته، بل أخذت تتسع وتأخذ أشكالا مختلفة، وصفها بعد أن كبر واستوعب الموقف، بأحلى هزيمة تلقاها في حياته، الهزيمة التي كشفت رجولته كما قال لرفاقه لاحقا، ولعله بسبب هذا الموقف أحس بضرورة أن يكون بطلا حقيقيا وأن يخرج من بطولاته الوهمية الساخرة،

وأول بطولة يمكن أن يبدأ بها هي اقتحامه بيت الساحلي، لاسيما أن كل أهل الحي مشغولون بما يخفيه هذا البيت الغريب، وبما أن المستكاوي على عتبة الرجولة فمن المهم له ألا يتردد في إثباتها بدءا من هذا الموقف، وفي هذا فرصة ليثبت للفتيات أنه صار رجلا، كما يثبت لتلك الفتاة التي طرحته أرضا أنه كان موقفا تمثيليا لا أكثر.

في أول ليلة نامها المستكاوي بعد قراره الذي يمكن وصفه بالقرار الأول في طريق الرجولة، رأى المستكاوي نفسه في رداء فارس عربي، كان قد رآه في مسلسل تلفزيوني. كان سيفه طويلا، و ثقيلا في يده، ما جعله يشعر بصعوبة حمله، كما رأى أنه أمام حصن طيني يحرسه رجال على رؤوسهم خوذات حمر، وخلفه صف من الصبيان الذين يصيحون طالبين منه اقتحام الحصن، فيما هو يحاول امتشاق سيفه من غمده دون أن يستطيع إخراجه من الغمد، فقد بدا له مفرطا في الطول إلى درجة أن استيقظ وسيفه لم يخرج من غمده، كما أحس بألم في يده أدرك فور استيقاظه أنها كانت ملتوية تحته طوال ليلته، ما جعله يشعر بالحرج من رفاقه الذين كانوا ينتظرونه في الموعد، حين اعتذر منهم و طلب تأجيل وقت الاقتحام إلى أن تبرأ يده من الالتواء الذي أصابها ليلة البارحة.

علَّق بعض رفاقه على الموقف بأنه هروب مبكر وانسحاب من المواجهة، فيما طلب بعضهم إمهاله فرصة ثلاثة أيام حتى تظهر حقيقة اليد المربوطة،

وقد اتفق الجميع أن يبقى الأمر سرا حتى لا تفشل الخطة التي رتبت من قبل المستكاوي و رفاقه في ظل شجرة اللوز التي بجوار المسجد.

كان المستكاوي قد طلب من بعض أفراد الجيش، كما سموه فيما بينهم، بإشغال "مرشودة" عن غنمها، أو طرد الغنم نفسها إلى مكان آخر حتى لا تراهم مرشودة أثناء تسللهم إلى البيت من جهة الجبل، فهي الجهة الوحيدة التي يمكن من خلالها القفز على السور ثم النزول من طرف السقف الجانبي للصندقة إلى داخل الحوش. تبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية حين يظهر النصف الثاني من الجيش بعد فتح الباب من الداخل وإغلاقه حتى لا يشعر أحد بوجودهم داخل البيت إلى أن يفرغوا من تفقّد البيت و معرفة ما بداخله. كان المستكاوي، حسب الخطة، هو أول من سيقفز داخل السور، وقد اعتاد في مغامراته السابقة أن يقف على حافة الجدار يتابع ببصره من أعلى كل ما يحويه المكان من أشياء غريبة، وهي الهواية المحببة إليه خصوصا حين يقع بصره على أشياء لأول مرة يشاهدها.

حين أدركه البلوغ وتفتّحت عيناه على تلك المنطقة التي بدأ يتحسسها في شعوره الجديد تذكَّر يوم تسلَّق سور البستاني لسرقة الجوافة أنه رأى فتاة تكبره سنا تتجول داخل البستان بلباس لم يشعر بمفاتنه إلا هذه اللحظة حين اكتشف نفسه من الداخل. وقتها تمنى أنه سقط من أعلى السور داخل البستان.

لا يستوعب عقل المستكاوي أن وراء سقوط كل رجل امرأة، لكن تجربته في اكتشاف نفسه جعلته يشعر بذلك دون أن يجريه على لسانه أو حتى يجعل من هذه الحادثة أو الحادثتين قانونا اجتماعيا.كانت رغبته الجديدة في أن يجري اسمه على ألسنة الفتيات بشكل خاص، وعلى ألسنة أهل الحي بشكل عام، هي التي تحكم تصرفاته وتوجهه إلى ما يريد فعله، ولم يبلغ بعدُ المرحلة التي تمكّنه من فهم ما يحدث له فهما خاصا.

حين تذكّر المستكاوي فتاة السور توقع أن يكون اقتحامه لبيت الساحلي ينطوي على مفاجأة من هذا النوع، وبرغم شيخوخة الساحلي وما شاع أنه مقطوع من شجرة، إلا أن المستكاوي يعتقد أن خلف كل سور فتاة تنتظر فارس أحلامها، و قد اكتشف هذه الحقيقة فور بلوغه حين تجوَّل في ذاكرته فرأى مشاهد غير مكتملة الملامح لشخوص فتيات ينشرن الملابس على حبال الغسيل ،لكنه لم يكن يعير تلك المشاهد اهتمامًا ، ولولا حادثة الفتاة ما اكتشف هذه الحقيقة الغائبة عن ذهنه وشعوره.

من أجل هذا لم يأبه المستكاوي بسخرية رفاقه ولم يلتفت إلى هذا التحدي المحسوم لصالحه، فشعوره الجديد جعله أكثر ثقة بنفسه، وبرغم القلق والخوف، إلا أنه كان أكثر استعجالا من رفاقه حتى يثبت للجميع أنها ليست مغامرة ساخرة ،هذه المرة، وإنما هي مسألة رجولة يريد إثباتها للآخرين.

لم يكن أحد من الصبيان الذين لم يتجاوزوا عمر المستكاوي يدرك ما يرمي إليه، ولا ما يشعر به داخل أعماقه، فبعضهم أصغر منه بكثير، و

بعضهم دونه بقليل، لكنهم قطعا ليسوا مثله، حتى الذين بلغوا لم يشعروا بمثل ما شعر به بسبب عدم تلقّيهم للصدمة الكهربائية التي تلقّاها ، إضافة إلى أنهم لم يكونوا مثله حتى في صغره، فقد كان منذ طفولته المبكرة يتمتع بحسٍّ غريب تجاه الأشياء، و له نظرات مخيفة يتجوَّل بها في ملامح الأشياء، ما يعني أن لديه استعدادا فطريا من قبلُ للوقوف على الفوارق التي اكتشفها في وقتٍ مبكّر من عمره .

حين سأله أحد رفاقه:

"ماذا سنفعل لو رآنا الساحلي في بيته؟"

رد عليه ساخرا:

"في هذه الحالة يبدأ الرميُ بالمنجنيق"

وبعد أن ضحك بعض الصبية قال جادا:

" بسيطة .. نقول له ضاع لمرشودة سخل و نبحث عنه".

حينها ضج الجميع بالضحك دون استثناء، فلم يكن أحد منهم يستوعب المستكاوي جادا حتى وهو يعيش أقسى حالات الحزن، فالجميع لا يقبلونه إلا داخل هذا النمط الساخر، سواء كان حزينا أو جادا، وهو ما جعله يشعر بحاجته إلى هذه المعركة بالذات لأن نجاحه في إكمالها بجدية سيساعده على سلخ جلده القديم وارتداء جلد جديد يستطيع به إقناع أهل الحي، رجالهم ونسائهم ، فتيانهم وفتياتهم، أن المستكاوي تغيّر ، وهذا ما هو

بصدده و ما يحرص أن يشعر به الجميع كي لا يحبسونه في ردائه الساخر الذي نسجته له حكايات الطفولة الأولى .

(٦)

كل شيء في هذا الحي قابل لأن ينشطر إلى نصفين، بدءا بالبيوت المتناظرة في صفين متقابلين، وليس انتهاء بما يحدث من تحديات بين سكان الجهة الغربية من الحي وسكان الجهة الشرقية في كل ما يتعلق بشؤون الحياة الاجتماعية، وقد انسحب هذا الأمر على تحديات الصبية في ملعبهم الترابي حين ينقسمون إلى فريقين بحسب ما تقتضيه طبيعة الحي في هندسته العشوائية أو تضاريسه الطبيعية، وكانت الغلبة، بطبيعة الحال، غالبا ما تكون لسكان الجهة الغربية أسفل الحي بحكم مكانهم الاستراتيجي حيث يكثر التجمع السكاني في تلك الفترة الزمنية، إذ يتقلص الحي من أعلاه فيقف الامتداد السكاني قبل أن ينتهي إلى صدر جبل الحي الضخم.

و بطبيعة الحال فقد فرضت طبيعة الحي الجغرافية على سكانه نمطا من التعايش القابل للانفجار العنصري في أية لحظة .ساعد على ذلك انحدار السكان عن فرعين رئيسين من القبيلة الأم ما جعل التنافس على أشده وإن لم يكن ظاهرا على سطح العلاقات الاجتماعية، إذ يبدو للوافد من خارج القبيلة أن سكان الحي مجتمع واحد لا تتشعب فروعه، وهو ما كان يعتقده غنيم الساحلي قبل أن تحدث حادثة كشفت له شيئا مما كان يخفى عليه،

حين نشبت خصومة حول أرض كانت على مقربة من سفح الجبل، قريبة من بيته، عرف بسببها أن الخصومة ليست بين رجلين بقدر ما هي بين قبيلتين.

في هذه الحادثة اضطر الساحلي أن يخرج عن صمته و أن يسارَّ جاره بحديث مقتضب، كعادته، سأله فيه عن أصل القضية، فبان له أنها تتعلق بنشأة الأرض وإحياء المنطقة، حيث يصر سكان الجهة الغربية أن كل الحي في أساسه للمؤسس الذي أحياه في بدء التكوين، و تاريخ الحي يشهد أن مؤسس الحي ينتمي إلى القبيلة التي تسكن غربا، في حين يرى سكان الجهة الشرقية أن الأرض جزء من الجبل الذي يحمل اسم رجل منهم كان يسكن بجواره، تحت سفحه مباشرة، وهذه الأرض، التي هي محل النزاع، امتداد لسكنه، بدليل أن كل سكان الحي يدعون الجبل باسم صاحبهم.

أما حجة سكان الجهة الغربية فتستند إلى أنهم هم سكان الأرض الأصليون وأن خصومهم وافدون على الحي، وحين تنتفي الوثائق الرسمية تعود الأرض لأصحابها الأصليين.

بدت القضية في نظر الساحلي شبيهة بما كان يحدث في قريته بمدينة ينبع، فالجدل الذي كان يدور بين ينبع النخل و ينبع البحر يتجدد الآن أمامه داخل الشعب المكي، وحكاية طرش البحر التي كان يتزعمها قديما تظهر ثانية في مكان آخر، ما جعله يهمس في نفسه ساخرا:

"يبدو أني لست الطرش الوحيد في هذا الحي".

شعر أن القدر ساقه إلى المكان المناسب في أعلى الحي ليكون قريبا من الوافدين، على حد زعم سكان الجهة الغربية، وتحت هذا الشعور بدأ يميل في قضية الأرض إلى أنها جزء من الجبل، وأن الجبل ملك أقرب السكان إليه، كما هو أحق بمن يدعى به. قال هذا تأمينا على كلام جاره الذي يبدو أنه حين عرض عليه أصل القضية وتفاصيلها كان ينتظر تأييد كلامه في أن سكان الجهة الشرقية أولى بالجبل وكل ما اتصل به، وبالفعل فالساحلي شعر بضرورة أن يميل إلى ما يطلبه محدثه تعاطفا مع الوافدين ، ولأنه – أيضا – لو قال غير ذلك لتشعب بهم الحديث إلى جدل قد يجعله طرفا في الخصومة.

فور انتهاء الجدل الدائر ،وما قرره الخصوم من ضرورة الاحتكام إلى قضاة من أطراف محايدة من خارج الحي، رجع الساحلي بصمت إلى بيته، دون أن يبدي رأيا معلنا غير تلك المباركة الهامسة لمحدثه.

كان مذياعه الذي تركه معلقا على سريره يبث أحد برامجه اليومية قبل أن يعلن المذيع عن بدء النشرة الإخبارية التي افتتحت بخبر مقتل جنود إسرائيليين في غزة رد عليها العدو الصهيوني بقصف عشوائي وقع على إثره عدد من الضحايا الفلسطينيين فيما زحفت بعض المجنزرات الاسرائيلية باتجاه شمال غزة حيث تم هدم عدد من البيوت السكنية على أصحابها، و قد أكّدَ ناطق رسمي من البيت الأبيض على ضرورة ضبط النفس من الطرفين، و قبل أن ينتقل المذيع إلى إذاعة الخبر الثاني كانت يد غنيم الساحلي أسبق إلى

المذياع مفضلا إغلاقه قبل أن تندلع الحرب العالمية داخل هذه العلبة الصغيرة.

دعته هذه المصادفة إلى أن يضمر في قرارة نفسه أن لا يلتفت إلى كل ما يربطه بالأرض سوى خطواته وعصاه التي يتوكأ عليها لحظة السير فقط، و قد عزم أن يوصي ببيع بيته بعد موته على أن يوضع ثمنه في بناء مسجد، ثم تساءل بصوت عال:

"لا أدري كيف يتشبث هؤلاء الناس بأرض تركها أصحابها لهم و غداً سيتركونها لغيرهم؟"

لم تمض سوى لحظات على حديثه مع نفسه حتى شعر بجلبة و خصام حول بيته. نظر إلى الخارج فرأى الجموع التي انفضت قبل قليل قد عادت إلى مكان النزاع، و قد علت أصواتها هذه المرة، و بدا أن الأمر سيؤول إلى معركة تتشابك فيها الأيدي والعصي. حينها أغلق النافذة، كما أغلق المذياع قبل قليل،و على الفور فتح نافذةً إلى الماضي ، في قريته الساحليَّة ، فرأى كيف ضاقت مدينة ينبع إثر تلك المعارك التي دامت فترة زمنية ليست بالقصيرة بين أهالي ينبع النخل و أهالي ينبع البحر ، برزت له تلك الصورة للحشود التي بدأت تزحف من ينبع النخل متجهة إلى تأديب البحّارة الذين قذفهم البحر إلى الساحل ، بحسب ما يعتقدون .

يذكر أنّ تلك المعركة اضطرّت شيوخ القبائل إلى المشاركة ، سواء بالتصعيد أو حتى بالدعوة إلى الصلح ، كما يذكر بعض المعارك الجانبية على

مستوى الصبية ، خصوصًا حين تهدأ الأمور بين الكبار فيعيدها الصغار إلى الواجهة كلما جمعت أهل الحيين مناسبة مشتركة ، كمناسبة زفاف عابرة ، فتلوح له صورة مشعان و هو يحرّض الصبية واحدًا تلو الآخر ، مستثمرًا قدرته على السخرية و بثّ الحماس ، دون أن يشارك في أي عراك بشكل مباشر ، الأمر الذي دعاه إلى أن يغلق النافذة و يهمس:

" لا بدّ أنّ مشعان موجود في هذا الحيّ و أنّه هو الذي أعادهم مرة أخرى إلى هذا الضجيج حول الأرض ".

بدت له ملامح الحيّ شبيهة ، في أعماقها ، بملامح قريته الساحليّة ، بل شبيهة بالعالم الذي يخرج من ثقوب مذياعه ، فمن الواضح أنّ مشعان في كلّ أرض يتنازعها طرفان .

(٧)

في الوقت الذي كان فيه الصبية مشغولين بإعداد الترتيبات لاقتحام بيت الساحلي، فوجئوا أنّ مدة الانتظار قد اتسعت إلى أكثر من ثلاثة أيام، حين طلب المستكاوي من رفاقه تأجيل موعد الاقتحام حتى يعود من الرحلة الإجبارية التي كان من المنتظر أن تتجه إلى مدينة الطائف على سفح جبل الهدا حيث يعمل أبوه في شركة إصلاح الطرق، و هي الرحلة التي لم يكن ليفرط فيها ،بعد أن كبر وصار ذهابه مع أبيه من لوازم الإعداد لرجولته وسلخ جلده القديم كما قرر بينه وبين نفسه.

في هذا الوقت كان كبار الحي مشغولين أيضا بالجدل حول الأرض الجبلية المحايدة، وقد امتد الجدل، فيما بعد، إلى من يحق له الانتساب للحي، فقد بدا لسكان الجهة الشرقية حين قلّبوا الرأي واستشاروا في أمرهم أنَّ من الأصلح لهم ،في هذه القضية بالذات، أن يبحثوا عن شواهد أخرى تثبت أصالتهم في الحي.

كان هذا الرأي من ثمار اجتماعاتهم الخفية مع بعض أبناء عمومتهم خارج الحي، وهو بمثابة المدد من الخارج لكسب القضية، حين أشير لهم أن البئر المهجورة الكائنة بأعلى الحي تصلح أن تكون من أبرز الشواهد على هذه الأصالة، فقد سمعوا بأنفسهم أثناء تداول القضية ما ذكره بعض كبار السن المجربين الذين أشاروا إلى أن من قوانين أهل الديار التي جرى بها العرف أن من حفر بئرا في مكان ما فإنه يملكه بموجب هذا العمل، فالبئر وثيقة تفوق في ثبوتها كل الوثائق الرسمية، كما تفوق التسوير الحجري أيضا، والسبب يعود في ذلك إلى أن الماء أصل حياة البادية، وفي العرف والشرع معًا تذهب الأرض لمن أحياها.

كانت البئر قد نضبت منذ زمن، بيد أن براك، صاحب البئر، أصر أن تبقى شاهدا على الزمن والإحياء، وهو نفسه الرجل الذي ينسب إليه جبل الحي الضخم.

بقيت البئر المهجورة كمعلم من معالم الحي حتى بعد وفاة براك، وقد صارت فيما بعد ذاكرة للأساطير، حيث نسجت حولها الحكايات. منها أن في أعماق البئر حية تطلب ثأر قاتل ابنها، وأن نضوب الماء سببه راجع إلى أن هذه الحية تطفئ غضبها به، ولولا ذلك لخرجت وأهلكت كل أبناء الحي، وقد سببت هذه الأسطورة رعبا جعل بعض السكان يحرص على أن يهرق ما زاد عن حاجته من الماء في هذه البئر، التي يبدو أن جفافها لا تبله هذه القطرات الطارئة من حين لآخر.

حين علم سكان الجهة الغربية بالحجة الجديدة أعادوا النظر في أصل القضية، وقدَّموا شواهد تاريخية من وثائق قديمة تفيد أن الحي كان في أساسه حمى لأحد الولاة في زمن الدولة العثمانية، وأنه انتقل بعد ذلك لأحد تجار مكة القدماء، وقد اشتراه جدهم الأكبر من التاجر المكي بذود إبل، ثم تركه إلى أن أعيد إحياؤه من جديد على يد مؤسس الحي في الستينيات الهجرية، في عهد الملك عبد العزيز، أما البئر فهي قديمة منذ زمن الوالي التركي الذي كان يسقي منها خيله ويقيم في هذا الشعب فترة الشتاء للدفء ، بسبب طبيعة الشعب الجغرافية حيث تحيطه الجبال من ثلاث جهات تجعله مكانا دافئا حين يشتد البرد. فليس صحيحا أن البئر محفورة ابتداء من قبل براك الذي لم يزد على أن أعاد إحياءها حين سكن الحي، وكان ذلك بإذن من سكان الحي الأصليين، و هم، بطبيعة الحال، ينتمون للقبيلة المقيمة في الجانب الغربي.

يحفظ تاريخ الحي لفالح و أخيه أنهما أول من سكن الحي وقاما بتسوير المنطقة، وكانا من ضمن من وفدوا من المدينة وأقاموا في مدخل الشعب، ثم مع الزمن أوغلوا فيه وقاموا بتسوير المكان من جهته الجنوبية.

بعد ذلك تتابع سكان الحي حتى وصل إلى ما وصل إليه من تجمع سكاني ينتمي للقبيلة التي سكنته في بدء الأمر، وهي، كما يذكر تاريخ الحي، صاحبة الجهة الغربية، في حين لم يفد أبناء القبيلة الأخرى إلا بعد فترة زمنية طويلة فاستقروا حينها في أعلى الحي داخل الشعب من جهة الجبل.

بعد أن تم عرض ما سبق في مجلس الاحتكام بحضور شهود من الفريقين اتفق الحكمان معا على أن الأسبق أحق بالأرض مالم يثبت اللاحق وثيقة شراء، أو يتم البيع في المجلس تحت نظر الجميع وبالقيمة المناسبة مع الأخذ في الاعتبار الخسائر التي أنفقها القائم على الأرض ، و قد تراضى الجميع على الخيار الثاني، وانفض المجلس فيما بقيت بعض آثاره عالقة في الصدور بيد أنها تعبّر أحيانًا عن نفسها في تعليقات احتجاج هامسة كانت تدور في مجالس الحي المتفرّقة .

في أثناء هذه الحادثة كان مسلط قد فرغ من مشروعه الجديد الذي شغله عن معرفة ما يدور حوله، فقد كان منصرفا إلى اختراع سور كهربائي لصيد الكلاب والثعالب يمتد من بيته إلى سفح الجبل، بحيث يقوم بإيصال التيار الكهربائي فور سماع نباح كلب أو حتى ثغاء ماعز يتوقع أنها مختطفة، وقد استغرق هذا المشروع جهده، وكان وقت تنفيذه مناسبًا جدًا، إذ صرف الناس عن اجترار أحاديث الخصومة إلى هذه الفكرة التي لاقت تشجيعا من الصبيان وقلقا من الكبار، بيد أن اختفاء صوت الأعيرة النارية التي كانت تصدر من بندقية مسلط آخر الليل في معركته مع الكلاب والثعالب كان أثرا إيجابيا استحسنه أهل الحي وباركوا بسببه المشروع الجديد لمسلط.

كان هذا المشروع سببا في أن يملأ اسم مسلط الأفواه والأسماع، فقد لفت الأنظار إليه في هذه الفترة، و هي فترة غياب المستكاوي خلف جبال كرا، الأمر الذي صرف الصبية إلى الاندهاش بمسلط و نسيان حكاية

الاقتحام المزعومة، التي يبدو أنها صارت مثار السخرية بعد أن ظهر مسلط على واجهة المشهد في الحي إلى درجة أن مرشودة نفسها أظهرت امتنانها لمسلط وقررت أن تسمي جبل براك باسمه ، فمسلط هو من يستحق، في نظرها، أن يكون بطل الحي، بعد أن حقق مشروعه لأغنامها نومة هادئة دون فزع، وجعلها هي الأخرى تنام مطمئنة وهي التي لا يكاد تمر الليلة الواحدة دون أن تفقد رأسا أو رأسين من الغنم.

لم يكن مسلط مثل المستكاوي منصرفا إلى ما سيقوله الناس عنه، كان انهماكه في عمله هو كل شيء بالنسبة له، فهو لا يكاد يفرغ من مشروع مهني حتى يدخل في مشروع آخر، وقد ركَّز كل اهتمامه على حراسة الحي من الكلاب والثعالب، وقصر كل تفكيره على تطوير سلاحه الدفاعي، فكانت غرفته النائية على ربوة الجبل مخزن عتاده، وقد حظيت، بعد مشروعه الأخير، باهتمام الصبية الذين بدؤوا يرتادونها ما جعله يشعر بالضيق، وإغلاقها لحين صرف النظر عنه.

كان مسلط يحب الانهماك في عمله وحيدا، وكانت له عادة غريبة أثناء العمل، حين يخلع كل ملابسه عدا سرواله القصير وسيجارة تشتعل في آخر الرمق لا تغادر فمه، فيما هو بين تفكيك وتركيب وأدوات مبعثرة هنا و هناك.

(٨)

على سفح جبل كرا، في منطقة ترابية تتخللها أشجار العرعر، نصبت شركة المواصلات الخيام لموظفيها، من مهندسين وسائقين وخدم، وكان من بين السائقين معيض المطوع. هكذا يناديه رفاقه في العمل، لما يعرفونه عنه من التزام بأوقات الصلاة ونفور من التدخين، بالإضافة إلى ما يلاحظونه عليه بين فترة وفترة من ملازمة الاستغفار وعدم الخوض في الكلام الساقط، برغم ما يحيط به من مزاح جرئ يحرِّض على التفاعل خصوصا ما يتعلق بالنساء وتفاصيلهن المسكوت عنها.

كان معيض حين يخوض رفاقه في هذا النوع من الحديث ينأى جانبا ويشتغل بإصلاح ما ينبغي إصلاحه في جرافته قبل بدء العمل، أو يأخذ نفسه لصلاة الضحى.

"فرق كبير بين المستكاوي وأبيه"

هذا ما همس به جابر الريفي صديق المستكاوي، بل وقاله تصريحا في إحدى الجلسات التي يتعمدها المستكاوي وجابر خارج المعسكر.

تعارف المستكاوي و جابر في المرة الأولى التي جاء فيها المستكاوي مع أبيه، وبحكم صداقة الأبوين معيض المطوع ومسري الريفي و زمالتهما في العمل كان من الطبيعي أن تمتد علاقتهما في جهة موازية بين ابنيهما، فطبيعة العمل تقتضي أن يفرغا لبعضهما ساعات طويلة ريثما يضع العمال عتادهم و عدتهم قبيل الغروب.

يختلف أهل الطائف عن أهل مكة من جهة أنهم يحتفون كثيرًا بالزراعة بسبب طبيعتهم التي تستقبل المطر بشكل يكاد يكون مستمرا ،و فوق ذلك فلهم علاقة مختلفة مع الجبال لا تشبه علاقة المكيين بها ،إذ يكتفي المكيون بجعلها حدودًا تحيط ببيوتهم داخل الشعاب ،في حين تتحوَّل الجبال عند أهل الطائف إلى حصون و قلاع ،و قد انعكست هذه الطبيعة على الصبية و استعدادهم النفسي لمواجهة الحياة ،و كان هذا هو الفرق بين المستكاوي و جابر الذي يختلف كثيرًا عنه ،حيث عاش طفولةً لم تلبث أن صارت رجولةً مبكّرة لا تلتفت إلا إلى البحث عن مستقبل يجعل له مكانًا بين أهل القرية ،و كانت تنشئة جابر في إحدى قرى الطائف النابتة على أكتاف الجبال جعلته يشعر في وقتٍ مبكّر ،خصوصًا بعد موت أمه ،بضرورة أن يكبر في وقتٍ قياسي ليتجاوز محنته .هذا فضلا عن أن طبيعة أبناء القرى في كل مكان تعدّ الابن ليكون رجلا يرافق أباه و يمتهن مهنته في الزراعة أو تسوير الأراضي و بناء الحصون الجبلية أو حتى النزول معه إلى سوق الفاكهة لبيع ثمار الصيف .ما سوى ذلك لا تشغل الصبيان في القرى الطائفية إلا هواية

الرمي ،و كان جابر قد تعلّم الرمي كبقية رفاقه ،لكنه مع ذلك انصرف عن رفاق العمر قبل الالتحاق بالمدرسة و سلك طريق أبيه بحجة أن المدرسة تؤخّر الصبي عن عمر الرجال ،و هي النظرة المشتركة بين مجتمع المستكاوي في الشعب المكيّ و مجتمع جابر في وادي خمّاس .

في البداية لم يجرؤ المستكاوي على اقتحام عالم جابر، بسبب ما يسود اللقاءات الأولى من تحفُّظ، خصوصا فيما بين الشبان الذين للتو بدؤوا في تأسيس علاقات جديدة تنبئ عن رجولتهم التي يحرصون على إثباتها أمام الآخرين.

من أجل هذا غالبا ما تحدث خصومات حين يلتقي شبان من هذا النوع، إذ يحرص كل طرف على إثبات نفسه أمام الآخر، وقد حدث للمستكاوي في مجيئه الأول مشادات كلامية مع بعضهم حين شاكسوه فوصفوه بأنه طرش بحر. غير أن الأمر بالنسبة لجابر بدا مختلفا بحكم علاقة الأبوين، وقد ظهر لقاؤهم الثاني أكثر حميمية وأكثر إيغالا في التفاصيل الخاصة.

بدأ المستكاوي بجرأته المعتادة إذ سأله عن شعوره حين يلعب مع الفتيات في الحي، و أخذ يقص عليه حكاية الفتاة التي طرحته، وكيف أنه شعر حين سقطت عليه بشعور غريب في جسده. لم يتمالك جابر نفسه من الضحك، و أخذ يرسل تعليقاته الساخرة على أبناء مكة، في الوقت الذي بدا فيه المستكاوي متلهفا لسماع قصة مماثلة حدثت لجابر، غير أن جابر

كان أكثر تحفظا، حتى حين سأله عن فتيات الطائف، إذ لم يزد على أن قال له مشيرًا إلى شجرة رمان قريبة في بستانٍ مسوَّر :

"مثل ثمار تلك الشجرة .. تراه من خلف السور فقط ".

تذكّر المستكاوي حينها مداعبة والده له و هم قادمون في الطريق إلى الطائف، حين قال له:

"ما رأيك .. أزوجك من الطائف؟ نأخذ لك رمانة من رمان الطائف؟".

قالها ساخرا، في حين كان المستكاوي يحلم بالرجولة التي تجعله محل أنظار الفتيات، وكانت فكرته عن الزواج مرتبطة بالبطولات ومخالطة الرجال، لولا أن هذه الفكرة تلاشت من رأسه بعد أن شعر بعلاقة جديدة تنمو داخل أعماقه .

منذ ذلك الحين و حديث المستكاوي عن الفتيات يبدأ و يعود من تلك المعركة، فقد أيقظت فيه تلك السقطة شعورا لم ينم حتى هذه اللحظة التي يحاول فيها استدراج جابر لكشف مغامرات طفولية بين بساتين قريته.

جابر لم يكن من الصنف الذي يلتفت لمثل هذا الشعور، فقد نشأ رجلا منذ طفولته فلم يشعر بهذا الخط الفاصل بين الطفولة والرجولة، كان فقده لأمّه سببا في انصرافه عن تفاصيل الأحياء وضجيجها، وتلك الحكايات المخبوءة خلف أسوار البساتين، فلم يكن وقته يتسع إلا للنوم ، و الذهاب المبكر مع أبيه لحلقة الخضار والفواكه والنداء صباح مساء على كراتين الرمان

والبرشومي وبقية الفواكه الطائفية، قبل أن يكبر قليلا فيصطحبه أبوه إلى شركة المواصلات من أجل تهيئته للخدمة في هذه الشركة بعد أن يحال للتقاعد.

من أجل هذا كانت ذاكرة جابر لا تحتفظ إلا بأصوات الباعة وضجيج المعدات الثقيلة وأحاديث الرجال التي يقضون بها أوقات الاستراحة من العمل، و حتى عندما يتراشق الرجال بمزاح يتعرض لمناطق محظورة لم يكن جابر يعيره اهتماما ولا يفهم أبعاده وكناياته. في المقابل كان المستكاوي، على العكس منه تماما، من أولاد الأحياء الشعبية الموغلين في تفاصيل الشارع والدسائس والمقالب الساخنة، وفوق ذلك يتمتع بروح ساخرة ومخيلة خصبة في صناعة الحدث الذي يمر به، وقد حدث بعد زيارته الأولى لجبل الهدا أن اجتمع عليه الصبية في الحي فراح يقص لهم حكايات لم تحدث، ويصور لهم المكان في صورة أسطورية جعلته موضع الاهتمام، فاستطاع بهذه الطريقة أن يكون زعيم الصبية في الحي يترقبون موعد سفره وعودته بالحكايات الملأى بالغرابة والدهشة، وكان قبل أن يصطحبه أبوه في المرة الأولى يمارس دور الناقل لحكايات السفر، بدعوى أنه سمعها عن أبيه، ولا يزال يتذكر جميع من في الحي من الصبية حكاية العراك مع قردة الهدا حين هجمت عليهم بالحجارة فاضطروا إلى الدخول معها في معركة حسمت لصالح رجال الشركة، و لولا بسالة القناص الذي كان معهم ودقة رميه ما سلم أحد من قردة الجبل، وكان وهو يصف مهارته في الرمي يسخر من مسلط وبندقيته التي

يقول إنها "نبّيله" بالنسبة لبندقية القناص الضخمة ، كما يقول عن مسلط إنه يفرغ صندوق رصاصه من أجل صيد كلب واحد في حين يسقط القنَّاص الطائفي قردةً بعدد الرصاص الذي في جعبته .

(٩)

عاد المستكاوي بعد أن قضى بضعة أيام مع أبيه في مدينة الطائف. كان يرتدي بعد عودته ثوبا بني اللون في إشارة منه إلى التغير الذي طرأ عليه بعد السفر، و هي عادة عرفه رفاقه بها حين يتحلقون حوله و يقص لهم حكاياته التي عاشها خلف جبل كرا.

هذه المرة وجد العكس إذ لم يلتفت إليه الصبية و لم يبدُ عليهم شوقٌ إلى حكاياته، فلم يسأله أحد عن شيءٍ منها باستثناء التحية الواجبة،فعلم بعد ذلك أنّ الجميع كانوا مشغولين بمشروعات مسلط المتلاحقة.

حدَّثه الرفاق عن المصيدة الكهربائية، وعن غرفة الجبل، وما كان مسلط بصدده من الاشتغال على مشروع جديد سيجعل الحي محاطا من كل جوانبه بالأسلاك الكهربائية والمصابيح التي ستضيء جوانبه لكشف المتسللين إلى الداخل، كما تحميه من اللصوص الذين قد يأتون إليه من الخارج .

كان مسلط ،بالفعل ،يفكِّر في القضاء على ظاهرة السطو ليلا بعد أن أراحه مشروع المصيدة الكهربائية من الكلاب والثعالب ،في حين شعر المستكاوي أنّ فترة غيابه القصيرة شهدت أحداثًا غيَّرت مسار الاهتمام في الحي، فالساحلي تراجع الاهتمام به و صار درجة ثانية خصوصا بعد أن بدت ملامحه تظهر شيئا فشيئا إثر حادثة الأرض، و بعد أن بدأ يختلط ببعض رجال الحي عن طريق علاقات عابرة مع بعض كبار السن في الضفة

الشرقية، و لاسيما العم مغلي صاحب الدكان الذي كان يجالسه أحيانا فيتذاكرون شيئا من أحاديث السوق وما يحدث في حلقة الخضار يوم الجمعة من تنافس وشجار بين تجار السوق في جرول.

حين أدرك المستكاوي أن اقتحام بيت الساحلي لم يعد ذات أهمية لدى الحي كله قدحت في ذهنه فكرة أن يجلب الصبية إليه باقتراح مشروع طريق كرا في الربوة التي تقع على سفح الجبل الجنوبي من الحي، فمنافسه الوحيد مسلط لابد أن يتراجع إلى الخلف، على الأقل، فيما يخص رفاقه الذين وجدهم يروون مخترعاته بكثير من الدهشة و الإكبار.

أعلن المستكاوي عن بدء مشروعه مستعينا بأقرب الرفاق إليه، وتم نقل فكرة جبل كرا بطرقه المتعرجة إلى جبل الحي الجنوبي المنبسط من أعلاه، و قد لفت هذا المشروع كل الصبية الذين بدؤوا في الحفر ونقل التراب وإصلاح الطريق في شكله المتعرج حتى بدا للجميع أن نقلة نوعية حدثت في الحي، فالصغار صاروا يصعدون إلى الجبل منهمكين في العمل من الصباح إلى قبيل الغروب، وكان الحي يخلو تماما وقت النهار من الرجال والصبيان، فلا يعبر الشارع سوى النساء في زياراتهن ، أما الفتيات فيتحلقن حول بعضهن في زوايا الحي الخلفية يلعبن أو ينشدن ويتبادلن الضحكات الساخرة.

لم يقطع انهماك الصبية في أعمالهم التي ظلت على وتيرة واحدة سوى ما تنادى به رجال الحي من ضرورة التعليم وتصوير الأبناء تمهيدا لإدخالهم المدرسة.

دون ريب كان أكثر المتضررين من دخول المدرسة المستكاوي الذي أعلن تمرده على أهل الحي وفرّ إلى ناحية الجبل الجنوبي مختبئا وراء صخرات مجوَّفة كان قد اتخذها مكانا لزعامته المهددة في ظل إصرار أهل الحي على المدرسة.

وبالطبع لم يصمد كثيرا أمام هذا الخيار الوحيد، حيث التحق بالمدرسة كبيرا ومارس سلطته على الصبية في تحريضهم على الهروب، ما جعل ذلك سببا في التحذير منه من قبل كل الآباء، إلى درجة صارت صداقته تهمة تستحق العقوبة، وقد أثَّر ذلك على ارتياد الصبية للجبل الجنوبي وتناقصهم حتى لم يبق معه سوى أقرب أصدقائه مزهر، صديقه الذي يبوح له بكل أسراره و يعيد على مسامعه حكاياته مع جابر و ربما اتّسع الأمر إلى اختلاق قصص يزعم أنها حدثت له في قرى الطائف و هي في الحقيقة لم تحدث إلا في مخيّلته خصوصًا تلك القصص التي تتعلّق بمغامراته في الوديان و لقاءاته العاطفيّة التي كان يأمل أن تتحقّق بصحبة جابر لولا أن جابر نفسه أفسد عليه كلّ أحلامه بإغلاق كلّ الطرق المؤدية إليها ، فاقتصر بسبب ذلك على أن يجعلها أحلاما يقصّها على مزهر مدّعيًا أنّه عاشها واقعا في الطائف .

التحق مزهر بالمدرسة في سن متأخرة ،وكان ذكيا يملك قدرة على فهم ما يقوله الكبار حين يتعمدون إخفاء كلامهم عن الصبية بالكناية والتعريض ،و برغم أن مزهر كان يشاركه اللعب و الأسرار إلا أنه ينظر إلى المستقبل نظرة جادة ،تمامًا مثل صديقه جابر ، و كان يعد أمه كل صباح بتجاوز كل

رفاقه الذين سبقوه إلى المدرسة، و أنّه سينجح كل سنة حتى يصبح "جنديا"، أو بتعبير أهل الحيّ "عسكري"،يعاقب السائقين الذين يسرعون بسياراتهم ويسببون الحوادث في الطرقات العامة.

برغم كل هذا كان مزهر أول من استجاب لفكرة مشروع جبل كرا، وهو السبب الأول في صرف الصبية عن غرفة مسلط الجبلية وتحويل اتجاههم نحو الجبل الجنوبي للوقوف مع المستكاوي في مشروعه. أكثر من ذلك كان مزهر يسرق عقال أبيه المقصب من الدولاب للقيام بدور الملك في المشهد الذي كان المستكاوي يحرص على تمثيله حين يصفّ الصبية على جنبات الطريق ليؤدوا التحية العسكرية لموكب الملك.

يتألّف الموكب الملكي ،في مشهده الطفولي، من مزهر ملكًا والمستكاوي سائقًا له ومجموعة من الصبية يركضون وراء الموكب بعد أن ينطلق من قمة الجبل الجنوبي باتجاه الحي في طريق متعرج .

و بطبيعة الحال كانت هذه الانطلاقة تتطلب من مزهر أن يمسك بطرف ثوب المستكاوي ويركض في مستوى ركضه حتى يصل الموكب إلى أسفل الحي.

يتكرر مثل هذا المشهد بين فترة وفترة مع تغيير الملك أحيانا، و قد حدث في بعض المواكب أن تعثَّر المستكاوي فسقط الملك على ركبتيه وانتهى المشهد بمأساةٍ ساخرة ، اختلط فيها ضجيجٌ من البكاء والضحك.

كل هذا الصخب الذي نقله المستكاوي إلى رابية الحي الجنوبية تلاشى بعد القرار المشؤوم بالنسبة للمستكاوي، وهو الذي ترك أثره العميق في نفسه حين اضطره إلى كثرة الغياب حتى كاد أن ينقطع عن الدراسة.

لم يكن المستكاوي منذ طفولته الباكرة مهيأ للانخراط في مجتمع منظم، برغم ما يملكه من قدرات ،على مستوى الحي، في تنظيم الصبية والتأثير على قراراتهم، بيد أنه على المستوى الأسري والمدرسي يشعر أن الانضباط قيدٌ لرغباته التي ينبغي أن يوزعها في أطراف الحي و زواياه المخبوءة ،في تلك الأسرار التي يحتفظ بها لرفاق مخصوصين يبادلهم في غفلة من رقابة الحي الأحاديث الخاصّة، في إشارة منه إلى التمرد على مجتمع الآباء الرسمي.

كان المستكاوي يراقب العمال اليمنيين الذين كانوا يأتون صباحا لإكمال بناء وتسقيف البيوت المسلحة الجديدة، وكان يستغل غيابه عن المدرسة في تعلم عادات جديدة لم يكن يألفها أهل الحيّ، حتى راجت عنه بعض التأمّلات الخاصّة التي راجت بين الصبية فيما بعد، بدعوى أنها تصنع مزاجا خاصا وعالما من الفرح ، وكان المستكاوي أكثر الصبية تشبثا بهذه العادة التأمّليَّة التي تعيد إليه ما فاته من أحلام سرقتها المدرسة، كما كان أكثر الصبية فرحا حين يرى السحاب قادما من خلف الجبل مبشرًا بغياب اضطراري ورحلة جبلية يتفقَّد فيها نبات العشرق والسنا و بقية النباتات الجبلية التي تعقب المطر.

(١٠)

لم يتوقع المستكاوي أن يجد في جعبة مرشودة كل هذه الحكايات التي حفل بها صباحه المسروق من المدرسة هذا اليوم.

كان المستكاوي قد عاد وحده إلى الحي فور اختفاء سيارة والده الذي اعتاد ترك الصبية عند باب المدرسة دون أن يتتبع خطواتهم الأخيرة قبيل الاطمئنان إلى أنهم دلفوا داخل السور المدرسي، الأمر الذي مكَّن المستكاوي من قطع مسافة الطريق الترابي بين المدرسة والحي حين لفتته غنم مرشودة و هي تجسّ الأرض بحثا عن مرعى قديم خلّفه الربيع الذي رحل قبيل شهر تاركا في أثره بقايا عشب أصفر.

حين رأى مرشودة خشي أن تخبر والده برغم اعتياده على ما يتطاير من عتاب يذهب أدراج الرياح جعله لا يبالي كثيرا حين يقرر الهروب من المدرسة. مع ذلك كان يخفي هروبه اتقاء لغضبة مفاجئة لم يعتد عليها من والده، و هذا، بالطبع، ما جعله يستحلف مرشودة أن يبقى الأمر بينه وبينها سرا مقابل مساعدتها في لمّ شعث القطيع المتفرق حين العودة إلى الحي.

كان هذا العرض مغريا لمرشودة التي لم تعد قادرة على مجاراة القطيع أو حتى مسايرته. حين اطمأن المستكاوي إلى الصفقة الرابحة بالنسبة للطرفين أحب أن يقضي ما تبقَّى من اليوم في صحبة مرشودة واستدراجها إلى الحديث عما يحب ويرغب.

بمكر وجرأة سألها عن أنفها المخروم. كان الخرم في أنف مرشودة متسعا خاليا من زمامها الذي كانت تباهي به أيام شبابها كما ذكرت له أثناء الحديث الذي بدأته بتوضيح أن هذا الزمام ليس زينة فحسب، وإنما علامة على انقياد المرأة لزوجها كما تنقاد الناقة للراعي، وحين سألها عن سبب حرص النساء في الزمن القديم على اعتباره زينة برغم أنه ليس كذلك، أخبرته أن هذا الأمر متعلق بحكاية قديمة يتذاكرها أهل البادية عن رجل ضخم الجثة، كثيف الشعر، له عينان بارزتان، كان يرغب النساء ذوات الأنوف الصقيلة كالسيوف ، فكان إذا دخل على المرأة بدأ بقضم أنفها في إشارة إلى الدخول بها ليلة العرس، و منذ ذلك الحين و هذه الحلية تعني أن المرأة في ذمة رجل ، حينذاك سألها المستكاوي بسخرية:

" و أنت كم مرة قضموا أنفك ؟ "

ضحكت وبادلته السخرية بسخرية قائلة:

" هذه التي تراها القضمة الثالثة " .

كان زمن مرشودة شحيحا بالنساء لذلك كانت المرأة لا تترمّل، فما إن يموت زوجها حتى يتسابق عليها الرجال الأقربون منها أو من زوجها.

كانت مرشودة ، بالطبع، تزهو بأنها أول امرأة لبست الزمام في نساء القبيلة، وأن النساء تبعنها بعد ذلك وسرن على خطاها، ما جعل المستكاوي يلتفّ عليها بتعليق ماكر :

" لكن ليس في حينا أنف مخروم غير أنفك " .

حينئذ طلبت منه أن يسأل أمه عن عدد الأنوف المخرومة في الحي، فأجابها بخجل :

" كنت أمزح و لا أعني شيئا ، أقسم لك يا خالة " ثم انهزم أمام هذه اللكمة التي كادت تدمي أنفه و أنف أمّه معًا .

فور أن جمع المستكاوي قطيع الغنم حسب الشرط عاد إلى الحي قبيل الظهر مدعيا أنه جاء من المدرسة وحين سئل عن رفاقه في المدرسة ذكر أنهم خلفه ينتظر بعضهم بعضا حتى يكتملوا، في حين ترك مرشودة تجمع بقايا حكاياتها مع القطيع وقد قفلت باتجاه الحي و هي تردد أبياتا قديمة علقت بذاكرتها الصدئة في حداء هامس، فيما تجتر زمن شبابها يوم كانت ترعى رؤوسا قليلة من الغنم لأهلها فتخرج مع نساء القبيلة في المرعى الفسيح الذي كان في الأرض المنبسطة خلف جبل ورقان غرب المدينة المنورة حيث منازل القبيلة.

كان طريقها إلى الحي،هذه المرة، حافلا بالذكريات التي نبشها المستكاوي، فلم تدع طرفا من ماضيها إلا عبرته ونفضت بعض صوره الكامنة في أعماقها، بدءا بقصة مرعي الذي خطبها من أبيها فكان أول من قضم أنفها، بحسب الأسطورة، وكان زوجها الأثير لديها برغم أنها لم تنجب منه ولدا، فقد مات عنها بعد أن تسمم بعشبة جبلية مضغها في رحلة صيد، أما زوجها الثاني فكان ابن عمها، فيما كان الثالث ابن خالها وهو الذي أنجبت منه سراج المعتوه، حيث ولد ناقص العقل، لكنه، برغم ذلك، كان عقل الحي

الباطن، يعرف سكان الحي أن أحاديثه وأخباره هي، في حقيقتها، أحاديثهم وأخبارهم التي سكتوا عنها ولا يرغبون في إعلانها.

كان سراج يتجول في الحي معلنا ما فاته من أحداث بعد أن يكون الناس قد نفضوا أيديهم منها، لكنه، مع ذلك، يعيدها جديدة كأنما حدثت للتو. يصل الأمر أحيانا إلى تذكير أهل الحي بها وتنبيههم على ما فاتهم. وكان من بين ما علق من أحداث الحي الهامة حادثة الأرض التي كادت تصطرع عليها القبيلتان، فقد أعادها إلى واجهة المشهد في أحاديث مكرورة يلقيها على كبار السن وهم في الطريق إلى المسجد.

هبت ريح الشباب على مرشودة فشعرت بالامتنان للمستكاوي الذي يبدو أنه أزاح مسلط وحلّ في مكانه بالنسبة لها ، فقد وصلت للبيت وهي تردد اسمه وتصفه بأنه من خيرة صبيان الحي، نظرا لما قدمه لها من خدمة الرعي، والأهم من ذلك ما أثاره فيها من أحاديث وحكايات قديمة أعادتها خمسين سنة إلى الوراء.

في الطرف المقابل كان المستكاوي قد عقد العزم على أن يقضي فراغ هروبه من المدرسة مع مرشودة ليملأ بها المسافة الزمنية الواسعة حتى يحين موعد انصراف الطلاب ،ولا مانع أن يعمل راعيا عندها إذا لزم الأمر، فهذه العجوز قد تكون طريقه الأخضر إلى الزواج ودليله إلى فتاته الحسناء. يحتاج الأمر فقط إلى تهيئتها والتجول بها في الماضي حتى يكسب ودها، حينها سيكون في مقدوره استدراجها إلى الحديث عن فتيات الحي. سيسألها حتما

عن معنى أن تسقط المرأة الرجل أرضا؟ عن مدى اهتمام الفتيات بالشبان الصغار؟، هل يفضلن الشنب الكثيف والخنافس كما يتصور؟ أم يفضلن الولد الخالي من الشعر؟ هل الرجولة تعني لهن الشجاعة وتسلق الجبال والحصون أم تعني القدرة على قضم أكثر من أنف؟ كانت مثل هذه الأسئلة تضج في أعماق المستكاوي دون أن يبوح بها أو يتفوه. الأكيد أن المستكاوي أخبر صديقه مزهر بكل ما حدث مع العجوز، وربما تواعدا معا على الجلوس مع مرشودة واستقصاء أخبارها وحكاياتها اللذيذة. فيما لو طلب المستكاوي ذلك من مزهر فلن يمانع في الذهاب معه بسبب ما بينهما من ود متصل، غير أن ذلك لن يكون في يوم دراسي، فمزهر لا يغيب عن المدرسة وفي تصوره أن الغياب يؤخّر سيره،و يقعده عن اللحاق بالرفاق الذين سبقوه في الدراسة .

(١١)

"لابد من الاتساع خارج الحي".

قال مسلط هذه العبارة حين رأى أن نشاطه في حاجة إلى ما هو أبعد من مصيدة كهربائية أو أسلاك شائكة، وقد شعر بهذه الضرورة بعد أن التقى خارج الحي أحد زملاء الدراسة ممن تركوا المدرسة مبكرا واتجهوا إلى التشاليح في الهجرة المفاجئة التي راح ضحيتها كثير من طلاب المدارس بسبب الطفرة الاقتصادية، بالإضافة إلى آخرين اتجهوا إلى اللواري والقلابات بعد أن أدرك كثير من الآباء أن المدرسة ليست أكثر من سجن يحبس الرزق، كما وصفها أحد كبار السن، في الجدل الذي دار بين مؤيد لاستثمار طاقات الشباب في الأعمال الحرة و معارض لهذا القرار الأحمق، بحسب وصفه، لأنه كما يرى لا شيء أفضل مستقبلا لأبناء الحي من التعليم.

لاقى هذا الاتجاه المفاجئ استحسان كثير من الآباء والأبناء معا، حين شرعوا في تنفيذه فورا دون انتظار ما تؤول إليه نتائج الجدل الساخن، باستثناء قليل من الصبية الذين واصلوا الدراسة على كره منهم وتحت إجبار آبائهم تحسبا لما سيحدث في المستقبل من تغير في الحياة وقناعات الناس.

في هذه الفترة، تحديدا، كان مسلط قد التقى صديقه "أبو نقطة". كان لا يدعوه أحد إلا بهذا اللقب الذي التصق به بسبب أنه كان في حصة الإملاء يسأل المعلم بعد كل عبارة يمليها عليهم: " نحط نقطة؟" ، ما جعل المعلم يدعوه "أبو نقطة"، فشاع ذلك بين زملائه، وحين ترك المدرسة إلى

قيادة الونشات والعمل في التشاليح أخذت الكنية بعدا آخر ومفهوما جديدا في المجتمع المهني.

كان أبو نقطة حين التقاه مسلط مزهوا بالونش ما دعاه إلى الضغط على دواسة البنزين بقدمه ملتفتا إلى الوراء حيث السيارة الصدئة التي علق صدامها الأمامي بذيل الونش، فبدا كعقرب تجر فريستها.

شد هذا المنظر انتباه مسلط،وهو الذي قضى كل أوقاته في الحي ،داخل هذه اللعبة الآلية،حيث الأشياء تتعالق وتتشابك في منظومة من الخرد والأدوات التالفة،فوجد أن غرفته الضيقة داخل الحي قد لا تستوعب فكره المتسع، كما أن الحي نفسه لا يستوعب مخترعاته الحديثة، فزاد إصراره على فكرة الانتقال من الحي إلى مكان أوسع يستطيع من خلاله توسيع رقعة مصنعه وتطويره، وهو ما حدث حين سنحت له فرصة العمل صبيا في تشليح السمطي.

واصل ،فور انضمامه لتشليح السمطي،انهماكه في العمل برغبة و حبّ جعلته محطّ أنظار أصحاب التشاليح،و على إثر ذلك ترقّى ، بسبب موهبته اللافتة، إلى رئيس العمال في التشليح، فصار يقضي كل وقته تقريبا في حي التشاليح، يفكك ويركّب،و يرسم هياكل في قصاصات ورقية للسيارات القديمة بغية الخروج بهيكل جديد كان حريصا على إنتاجه من مجموع هياكل لسيارات مختلفة الأنواع، وهي فكرته التي بدأت تلح عليه منذ انتقل عمله إلى التشليح بشكل رسمي إلى أن صار رئيسا للعمال. ساعده هذا المنصب على

أن يستعين بالعمال في التفكيك والربط وإحضار المعدات الناقصة من التشاليح المجاورة.

كانت فكرته، كما رسم هيكلها، تتلخص في كيف يمكن صناعة سيارة ذات مقود أمامي وآخر خلفي، بحيث يستطيع السائق الاستغناء عن "الريوس" بمجرد الانتقال عن طريق زر إلى المقود الخلفي وعكس اتجاهه فقط. كانت هذه الفكرة تتطلب أن يؤلف هيكلا بمقدمتين ،مع إلغاء شنطة السيارة، وقد خطرت له هذه الفكرة أول ما خطرت في المدرسة أثناء انهماك أحد المعلمين في الكتابة على السبورة. كان يفكر حينها كيف يمكن للمعلم أن يرى طلابه دون أن يضطرّ إلى الالتفات بجسده؟ تطور هذا السؤال حين علم، فيما بعد، بوجود ثياب سودانية يمكن ارتداءها على الجهتين، فدعاه ذلك إلى أن يرتدي الثوب السوداني في التشليح لسعته وسهولة لبسه وخلعه أثناء العمل دون تفكير. كان مسلط يستكثر أي تفكير في غير عمله الذي نذر نفسه له، و لهذا بدا كسولا في كل عمل لا يتعلق بعمله ،حتى عندما يكون ما يقوم به مجرد التفكير في لبس الثوب غير مقلوب، وقد أخذت الفكرة شكلها النهائي حين رأى كثرة السيارات داخل التشليح و اضطره الأمر إلى إخراجها خصوصا أن السير إلى الخلف في مكان ضيق، فوق أنه مرهق، يهدر كثيرا من وقته أثناء العمل.

ترك مسلط المدرسة فور شعوره بضرورة اللحاق بأبو نقطة ورفاقه في حي التشاليح قبل أن يفوت الوقت، وحين اقترح عليه بعض رجال الحي الالتحاق

ببعض الورش المهنية والتعلم على يد بعض الصناع المهرة كي يستثمر مواهبه ويطوّرها رفض ذلك بحجة أنه يحب أن يعمل بعيدا عن النظام الصارم الذي يملى عليه من الآخرين.

شعر بذلك، أثناء السنوات التي قضاها في المدرسة، كما أدرك، من قبل، أن المدارس لا تخرج سوى المدرسين وهي الوظيفة التي لم يكن يرغبها مع أنها كانت متاحة بعد أن يتجاوز الصف السادس الابتدائي.

بدا الجو الجديد محرضا و محفزا على العمل، ما جعل مسلط يتمتّع بشهرة ذائعة بين أصحاب التشاليح، فقد كانت الآلة التي لا تمر على مسلط أو لا يعلن رأيه فيها أقل جودة في نظر الجميع ،دون استثناء، من تلك التي تنال إشادته أو تكون قد نزعت من سيارة رابضة في تشليحه.

امتد أثر هذه السمعة إلى سائر تشاليح السمطي في الأمكنة الأخرى، وقد ساعد ذلك على تحقيق شهرة واسعة للسمطي التاجر المعروف في التشاليح، كما تناقل أهل الصنعة فيما بينهم أخبار المخترعات التي كان مسلط يصدرها عن المحل، كمخترع الدربيل السيار، الذي طوره عن دربيل بندقيته، فقد بدا له أن الجيوب ، من نوع "الشاصي" ، التي يستعملها الصيادون في حاجة إلى دربيل ثابت يوضع على سقف السيارة ويتم تفعيله بواسطة قاعدة ثابتة ترتكز عليها البندقية حيث تساعد على ضبط عيار البندقية أثناء مطاردة الصيد. شاع هذا الدربيل بين الصيادين حتى سمي بدربيل السمطي نسبة إلى تاجر التشاليح المعروف.

في الحي كان مسلط قد ترك غرفته خالية إلا من بعض الأدوات التالفة التي يرى أن الزمن تجاوزها فلم يعد في حاجة إليها، و هذا، بطبيعة الحال، جعل غرفته مرتعا للهوام ومكانا لاختفاء الصبية المدخنين الذين كانوا يشعلون أعقاب سجائره ويدخنونها، أو يعثرون، بالصدفة، على بكت قديم في إحدى الشقوق التي تتخلل جدران الغرفة، حتى صارت غرفة مسلط محل خطر أو تهمة لأي صبي يقضي أوقاته فيها ما جعل بعض رجال الحي يحذرون أبناءهم من الصداقات المشبوهة التي تبدأ من غرفة مسلط، كما صارت غرفة مسلط بمثابة وكر للصبيان سيئي السمعة، إضافة إلى دخولها منافسا أسطوريا لبيت الساحلي المهجور في حكايات النساء الجديدة، حتى إن مرشودة نفسها صارت حين تجالس الفتيات الصغار تذكر لهن أن البنت الصغيرة التي تدخل غرفة مسلط يتزوجها العفريت ابو راسين، وهو عفريت قبيح المنظر ينام برأس ويستيقظ برأس ليصطاد الفتيات الصغار فلا يرجعن إلى أهلهن. كانت مرشودة تختلق مثل هذه الأساطير حول غرفة مسلط لتجعلها بمثابة السور حولها فلا يذهبن إليها خشية من الخطر الحقيقي الكامن فيها .

(١٢)

حين يعيد سراج الأحداث الخلفية إلى واجهة المشهد يربك الحي. الجميع يعرفون أنه معتوه، لكنهم مع كل هذا يقعون تحت سلطة روايته للأحداث وإعادة حكيها، بل يجعلون حكمه عليها هو الأصوب. وقد حدث أن أعاد مشكلة الأرض التي ظلت خامدة تحت ركام الأحداث المتلاحقة في الحي، لكنه حين وصفها بالأرض المسروقة وظل يرددها على مسامع كبار الحي في الجهة الغربية أثار حفيظة بعضهم فكادت أن تعود المشكلة كما كانت لولا أن الأمور هدأت مؤقتا حين قال أحدهم:

" البيع تم بحضور القضاة والشهود، ولا معنى للحديث في هذه القضية، فلا تتصرفوا كالمجانين فينقدكم الناس".

بيد أن كوامن النفوس ما زالت باقية، وقد امتد تأثيرها على الصبية في الحي، فصاروا حين يتنازعون في خصوماتهم لا يغفلون قصة الأرض المسروقة، بل ويطلبون من سراج إعادة الحكاية وغناء الأبيات التي قيلت فيها، فيهذي بها مجزأة غير كاملة، حتى شاع في الحي أن أحدا كان يلقّنه شيئا من الشعر في هذه القضية، وبرغم أنه لم يستجب أحد فعليا لما يردده سراج إلا أن القضية أخذت تتسع في المجالس كما لو كانت قد حدثت للتو.

الساحلي، هو الآخر، لم يسلم من روايات سراج فقد أعاده إلى أحاديث المجالس بعد أن غفل عنه أهل الحي حين انصرفوا إلى مشكلة الأرض. كان يحكي عنه روايات غريبة تتوافق مع ما يعتقده أهل الحي فيه،

فالساحلي، بحسب ما يحكيه سراج، متزوج وعنده امرأة حسناء يحبسها داخل الصندقة المهجورة، وفي كل ليلة يصعدون إلى قمة جبل الحي يشعلون نارا كبيرة خلف الجبل ويصنعون طعاما لضيوف غرباء يأتون من الجهة الأخرى.

ارتبطت هذه الحكاية المختلقة في أذهان أهل الحي بالزفة السمراء التي حدثت بجوار بيت الساحلي فراحوا يتساءلون إن كان سراج، فعلا، رأى شيئا في الواقع، خصوصا أنه يروي أحداثا تقع في الليل فلعله رأى أثناء تجواله ما يحكيه الآن.

أحدهم قال معلّقًا على أحاديث سراج :

– المجانين لا يكذبون .. صحيح أنهم ينقلون الخبر ناقصا ، لكنهم لا يكذبون .

ردّ عليه آخر مستدركًا :

– هذا صحيح .. لكنهم قد يلقَّنون الكلام ..

– ماذا تعني ؟

– أعني أن المجنون قد يكذب في حالة واحدة ..

– متى ؟

– حين يكون الملقِّن كاذبا !

اتسع النقاش ،بعد ذلك ،حول مدى تلقّي ما يحكيه سراج بالقبول و التصديق :

– هل علينا إهماله؟ أم نستند عليه لأخذ الحيطة والحذر على أقل تقدير؟

قال أحد الجالسين على دكة الحي، تلك التي تجمع كبار السن قبيل الغروب.

فردَّ آخر:

– في رأيي لابد من أخذ الحيطة والحذر .. أنتم تعرفون أن سراج تحدث في أكثر من قضية، وبعضها كان من قضايانا الخاصة، فقال فيها كلاما لا ينكر أحد منكم أنه عين الصواب، ومنها هذه الأرض التي أخذت منكم عنوة، فقبلتم فيها مبلغا زهيدا لا يساوي ثمنها الذي تستحقه.

حين وصل النقاش إلى هذه القضية بالذات تعالت الأصوات، فأخذت قضية الأرض مساحة أوسع من الحديث حتى نسي أكثرهم قضية الساحلي وزوجته وما قاله سراج عنهما.

من الواضح أن الحي، حين تحدث فيه مشكلة، يضطرب فيصير أخلاطا من الأحاديث الممزقة هنا وهناك، وربما كان سراج هو أفضل من يعبّر عن هذه الفوضى التي تعمّ الحي حين يقابلها بفوضى مماثلة من حكاياته غير المرتبة، فهو لا يكاد يبدأ في طرف حكاية حتى ينتقل إلى أخرى قبل تمام الأولى، متنقلا بين حكايات وسواليف وأبيات متداخلة، غير أن أهل الحي يقدرون ذكاءه الفطري فينصتون له بغية الظفر ببعض فلتاته التي تقع منهم موقعا حسنا، وهذا ما يجعل له تأثيرا على بعض الآراء حين تحدث خصومة

بين طرفين، ولهذا كان كل طرف يسعى إلى كسبه كصوت إعلامي ينشر ما يعتقده صوابا في أنحاء الحي، ولعل هذا ما دفع أحدهم إلى تمرير ما يريد بتلقينه بعض الأبيات الشعرية لتصل من خلاله إلى الناس.

كانت مرشودة، أحيانا، تعامله معاملة العاقل حين تنتهره محذرة إياه من التدخل في شؤون الناس وقضايا الحي، فكان يقابلها بابتسامة ساخرة، موضحا لها أنه سيسجن المجرمين الذين يسرقون الأموال، وسيتصل بالشرطة للقبض على الساحلي وزوجته اللذين يشعلون النار خلف الجبل.

وحدها مرشودة، من بين أهل الحي، تعرف عن الساحلي ما لا يعرفه الكثير، فقربها من بيته، وحاجتها إلى الحديث معه بسبب أغنامها التي تقفز إلى داخل بيته من خلف السور كانت قد كشفت لها بعضا من ملامحه، فعرفت عنه أنه لم ينجب، و ليس له أقارب، و أن قريته في ينبع حيث مساكن أهله. تعرف، أيضا، ما حدث لزوجته التي لم يعقبها بأخرى بعد موتها، وكانت كل هذه المعلومات قد جمعتها من أحاديثه القصيرة المقتضبة التي يجيب بها على أسئلتها كلما قفزت ماعز داخل بيته، إذ كانت لا تخرج إلا بخبر مهما صغر، وكأنما كانت تتعمد إرسال أغنامها لجمع معلومات أكثر، في حين كان الساحلي لا يعيرها اهتماما، فيجيبها على قدر سؤالها باقتضاب وإيجاز شديد، وقد اعتاد أهل الحي منه ذلك، حتى صار مثلا يضرب في الغموض، فكان أي أحد يكتم أمرا عنهم يصفونه بأنه صار ساحليا.

يعزو بعض أهل الحي ذلك إلى أن أهل الساحل يميلون إلى العزلة أكثر من أهل البر، فالساحلي، كما يعتقدون، غالب أوقاته إما صيادٌ داخل البحر حيث سكون البحر، أو على الساحل حين يضع سنارته وينتظر صامتا فترة طويلة، وكل هذه الأمور تجعله أكثر ميلا إلى الصمت أو الغناء الفردي، وربما كان هذا سبب الإيجاز في الحديث والغموض الذي قد يكون مرده إلى طبيعة البحر الغامض. لكن أحدا، من أهل الحي لم يكن يصنف غنيم الساحلي على هذا الاعتبار، وإنما على اعتبار أنه خارج قبيلة الحي، فهو، بهذا الوصف، طرش بحر قذفه الموج إلى الساحل.

(١٣)

كانت أول هزة تلقّاها الحي، جميعهم بلا استثناء، حين تسلل نبأ الحادث المروري المفاجئ الذي وقع صباحا، في الطريق إلى المدرسة.

كان المستكاوي وقتها في فناء المدرسة يتأمل الحقائب الملقاة على الأرض في شكل طابور صباحي لم يرتدِ طلابَهُ الذين ينتظرون بدء جرس الاصطفاف.

قبل بداية الجرس بدقائق قليلة، حضر صبي أسمر، من الحي المجاور. اتجه على الفور نحو الجهة التي يجلس فيها المستكاوي ورفاقه، وعلى الفور، أيضا، أرسل الخبر الصادم :" واحد من حارتكم .. دعسته سيارة ". كان مجرد النطق بالفعل " دعس" في ذاكرة الحي، وحتى الأحياء المجاورة، يعني أن الأمر لا يحتمل إلا الموت، وأكثر من ذلك تمزُّق الضحية تحت عجلات السيارة المسرعة. وقبل أن تكتمل الصورة ،في المخيلة، فتأخذ الصدمة هزتها العنيفة كاملة، كان قد فرغ من رواية تفاصيل الحادث، ثم أخذ المستكاوي إلى الطابور الفارغ إلا من الحقائب الملقاة، وعند حقيبة جلدية ذات لون بني و سحّاب عريض، أشار :" حقيبته مثل هذه " .

هنا شعر المستكاوي أن الأرض بدأت تدور به بالفعل، فالتفت نحو رفاق الحي. بحث عن ملامح مزهر الغائبة بينهم، برغم تأكده أنه لم يأت إلى المدرسة بعد، وأنه في الطريق إليها يحمل حقيبته البنية على رأسه. تغير كل شيء في لحظة واحدة: طارت الحقيبة بعيدا في أقصى ناحية من الشارع

الإسفلتي المخيف، بقع الدم بدت أكثر إفزاعا وهي تختلط بسواد الإسفلت، فيما ظهر جسد مزهر مسجى على قارعة الطريق حوله وجوه ممتقعة اللون لم تستوعب المشهد. هي، إذن، صورة من صور الموت الجديد الذي لم يعهده الحي. لم يكن في ذاكرة الناس في الحي سوى موت وديع يأتي إلى كبار السن فيأخذهم إلى حيث ينام الأجداد الذين سبقوهم.لم يكن الموت بالنسبة لأهل الحي سوى هذه الخاتمة الحتمية لكل حي، لهذا لم يكن يفزعهم أن يموت شيخ كبير قد شاهدوا مثل موته مرارا. من هنا كان موت مزهر موتا جديدا على الحي، ملأ زواياه برائحة الخوف التي تنبعث من كل الأشياء، ترك أثره في بقايا الملابس التي تركها الميت، وفي السرير الخشبي الذي يوضع عليه، و في الأمكنة التي تركها فارغة منه، حتى إنه تسلل إلى تلك الأحاديث التي تركها الميت عند عتبة البيت مودعا أمه قبل المغادرة. كل هذه الأشياء نسجت لنفسها حضورا في كل زاوية من زوايا الحي.

أحس المستكاوي أنه دخل في دوامة ابتلعته حتى لم يعد يميز الأشياء من حوله، وحين أفاق من صدمة النبأ الجديد رأى نفسه أمام مدخل الحي في موقف لم يغادر ذاكرته كلما أيقظ ذكرياته مع مزهر في مشروع جبل كرا، وفي تلك الخلوات التي تجمعهما يتبادلان الأسرار، وفي طموحات مزهر وأمانيه التي توقفت وتبعثرت في الطريق إلى المدرسة. رأى الشفر الأحمر خارجا يحمل في صندوقه أربعة من رجال الحي الملثمين ، فعلم أنهم متجهون إلى المقبرة. منذ تلك اللحظة حفظ المستكاوي تلك الوجوه في ذاكرته على أنها علامة

على الموت، خصوصا حين يتلثمون بالأشمغة الحمراء في إشارة إلى أنهم يمنعون رائحة الموت أن تنفذ إلى أنوفهم. بقيت رائحة الموت عالقة بالحي فترة طويلة، وامتد الرعب في صور شتى من الأحلام والحقائق، حتى اصطبغ الحي بهذا الشعور الكئيب فلم تسلم منه زاوية إلا تخيل أهله أن الموت يعبر منها، بيد أن بيت الساحلي كان أكثر البيوت انتقاعا به، فقد بدا لأهل الحي أن الموت من تلك اللحظة التي قبض فيها روح مزهر وهو يبسط جناحه على ناحية الجبل الجنوبي، وقد خُيَّل لكثير منهم أنه نصب خيمته على شرف الجبل من تلك الناحية فأقام في ذلك المكان، قريبا من بيت الساحلي.

امتدت حكايات النساء إلى الموت فأخذن يروين المخاوف التي كانت تطل من خلف جبال الحي المحيطة به في شكل أصوات تطلقها الثعالب منذرة بموت قريب، منها أنّ مزهر قد سمع شيئًا منها قبل أن ينام ، ما جعل كل امرأة تحرص على أن ينام أطفالها قبل أن تنتشر أصوات الثعالب في أطراف الحي، حتى تمنين أن مسلط لم يترك هوايته في صيد الكلاب والثعالب، فقد بدا لهن أنه كان يؤدي دورا مهما في منع هذه الأصوات من التكاثر، في حين بدا الرجال أكثر تماسكا وإن بقيت مرارة الموت عالقة بحلوقهم فترة ليست بالقصيرة أجبرتهم على الأحاديث المقتضبة التي لا تمتد إلى سوق المدينة حيث الصخب في جرول والغزة والتيسير، ذلك الصخب الذي ينسيهم الموت ويبتعد بهم عن روائحه حين ينهمكون في البيع والشراء،

غير أنهم يعودون إلى الحي فيجدونه ينتظرهم بصمته ورائحته التي لا تغادر كل زاوية من زواياه.

كان الشيء الوحيد الذي يربطهم بالموت خارج الحي، حين ينسربون في شوارع مكة، حرص كل واحد منهم على القبض على السائق الهارب منذ أن عرفوا أن السيارة التي دهست مزهر كانت من نوع الجيب، موديل ٧٦. كان قد أخبرهم بذلك أحد سكان الحي المجاور، وأكد لهم أنه حاول اللحاق به لكنه أفلت منه.

في هذه الفترة غاب المستكاوي داخل أعماقه، اعتزل الحي وترك رفاقه، في خلوة أراد أن تكون انقطاعا عن الضحك والمسامرات والأحاديث العابثة، حين بدت له رغباته منطفئة، قد تلونت، هي الأخرى، بالموت وامتزجت برائحته، ككل الأشياء في الحي.

كان المستكاوي أكثر الرفاق حزنا على مزهر، ليس، فقط، لأنه صديقه الحميم، و صاحب أسراره، أو حتى منقذ مشروعاته من الفشل، وإنما لأن المستكاوي نفسه كان يعي معنى الموت أكثر من رفاقه الآخرين. كان يشعر أنه غياب لا ينقطع، فيما كان البقية، خصوصا الصغار منهم، يحتفظون ببقايا من طفولتهم المبكرة التي لا ترى في الموت أكثر من حدث يعبر الحي فيجمع الرجال ثم يفرّقهم بعد حين ليمارسوا أعمالهم كما كانوا يفعلون من قبل. خلافا لذلك كان المستكاوي يشعر بطعم الموت في حلقه، مثل شعور الرجال. إضافة إلى أنه كان يحتفظ بصورة من صور مزهر التي فاضت عن

حاجة المدرسة حين عثر عليها في حقيبته مخبوءة كأنما كانت تنتظر خروجها منذ ذلك الوقت ، فلم يحن إلا هذه الساعة بعد أن غادر مزهر الحي وترك بقاياه خلفه تنبعث منها رائحة الموت.

(١٤)

ظلت وفاة مزهر حديث الحي، ليس على مستوى الوجع فحسب، بل حتى على مستوى الحدث الذي يبحث عن طرفه الهارب، فقد شغل كبار الحي بالسائق الذي لم يترك خلفه أثرا سوى ما تركته عجلات سيارته على الاسفلت أثناء محاولته تحاشي الصدمة، و قد اتضح لهم أنه كان مسرعا من طول الأثر الممتد على وجه الإسفلت الساخن في ظهيرة ذلك اليوم الحزين. ذهبوا معا إلى قسم الشرطة فوجدوا الضابط قد سجل تفاصيل الحادث و حيثياته، وباشر البحث عن السائق من خلال الدوريات الأمنية القليلة مستندا إلى وصف جارهم للسيارة. جيب شاصي، بني اللون، موديل ٧٦، مرتفع أكثر من الجيب الطبيعي عن الأرض، صدامه الخلفي منزوع، مع كسر طفيف في المصباح الأيسر. كان وصف جارهم الأسمر، محمد السامر، كما سماه لهم الضابط، وصفا تقريبيا، يصلح لبحث يوم كامل قبل أن تتغير معالمه في الأيام التالية.

"من المحتمل أن يعود الصدام الخلفي، أن يتم إصلاح المصباح، و أن يتغير حتى لون الجيب عدا أنه جيب موديل ٧٦".

هذا ما قاله الضابط لهم، وأردف:

"نحن نبذل وسعنا في القبض عليه و مجازاته، لكن تأكدوا أن هروبه لمدة يوم واحد طبيعي، فحادث كهذا قد يؤدي إلى الهروب تحت تأثير الصدمة

والخوف، وفور أن يزول التأثير يعود السائق معترفا بما حدث، ومبررا هروبه بالخوف من أصحاب الشأن. يحدث هذا كثيرا في حوادث الدهس".

و أضاف ليشعرهم بخطورة الموقف و الاهتمام به أكثر :

"بعد مضيّ أكثر من ثلاثة أيام دون أن يُسلِّم السائق نفسه سنقوم بتصنيف هذه الحادثة في النوع الجنائي، وسيتم البحث عن السائق على اعتبار أنه مجرم " .

حين سمع رجال الحي ما قاله الضابط خرجوا من عنده على أمل أن يحدث الخيار الأول، ليس من أجل إنهاء القضية بشكل مستعجل، كما هي عادتهم في التسامح مع الآخرين عند وقوع أي حادث مروري، و إنما لأنهم يدركون أن اتساع المسافة الزمنية يعني اتساع الحزن في الحي وامتداده في كل البيوت، فالحديث عن الجاني، في حالة غيابه الطويل، سيعلق الحزن على الأهداب وسيبقي الحياة معلقة إلى حين القبض على السائق الهارب.

المستكاوي وحده لم يكن يعنيه من كل ما حدث سوى غياب مزهر، فالقبض على السائق لن يعيد مزهر إلى الحياة، ولن يكون في وسع السائق حين يعود أن يرجع القهقرى بسيارته ليتفادى مزهر وهو يعبر الطريق باتجاه المدرسة. طالما أن هذا لن يحدث فما الذي يعنيه القبض على السائق، إنها مجرد إجراءات حكومية ستنتهي بالتنازل، وحتى لو لم تنته بالتنازل سيظل مزهر غائبا ولن يعود.

دار كل هذا في ذهن المستكاوي وهو يتمتم بينه وبين نفسه في عزلته خلف بيتهم المتكئ على جبل الحي الشمالي. كان حينها يتصفّح بعض الدفاتر التي أخذها من حقيبة مزهر، يقرأ تلك الكلمات الموشومة بقلم الرصاص في الأوراق الأخيرة من دفتر واجب العلوم، الدفتر الأثير لمزهر و المستكاوي معا، فلهما مع هذا الدفتر حكاية مشروع لم يكتب له الظهور. تذكّر المستكاوي ذلك اليوم الذي اجتمعا فيه يعدان صبيان الحي لتقسيمهما إلى فريقين متنافسين.

كان مزهر قد اختار لفريقه اسم البرق، في حين اختار المستكاوي لفريقه اسم الزرع، و بعد أن فرغا من كتابة الأسماء قاما بكتابة جدول المباريات. لم يكن الحي يتسع لأكثر من فريقين، ما جعلهما يرصدان في الجدول أربعة لقاءات.

جال المستكاوي بنظره في الدفتر، فبدا له الخط باهتا تكاد تغيب ملامحه، بسبب أنه مكتوب بقلم رصاص، فرأى في ملامح الخط صورة الغياب. شعر أن الكتابة جزء من هذا الفقد.حينها أغلق الدفتر وألقاه جانبا، ثم أخرج الصورة فرأى مزهر يرتدي عقال أبيه، وعلى الفور تذكّر عقال الملك في ذلك الموكب الطفولي الذي انطلق من قمة الجبل إلى منحدر الوادي حيث يستقر الحي مطمئنا بين البيوت المتناظرة على ضفافه . تذكّر تعثّر الموكب في إحدى انطلاقاته، ثم ركّز نظره في الصورة أكثر فبدا له مزهر ينظر بعينين

غائبتين، أحسّ أنها صورة غائب بالفعل، فاقشعرّ بدنه وأجهش بالبكاء على الصورة التي بقيت معه يخرجها كلما شعر أنه في حاجة إلى البكاء.

كان المستكاوي، خلافا لما جرت به عادة أهل الحي، يأنس بصور الغائبين، ينظر إليهم و يفسّر هذا النظر بأنه إبقاء لهم في الذاكرة، في حين كان رجال الحي ونساؤهم ،وما درج عليه صبيانهم ،لا يحتفظون بصور الموتى، إذ تبدو لهم صورة الميت، فوق أنها توقظ الحزن النائم في الأعماق، ذات عينين تحدقان في الموت.

في الطرف الآخر كان رجال الحي قد أشاعوا أن الحكومة أرسلت في طلب السائق الهارب، كما نشروا وصف السيارة بينهم تحسبا لمرورها في أي مكان أمام أحدهم، ما جعلهم يشعرون بنوع من الارتياح، وكأنما كان شعورهم العميق يحدثهم بعودة مزهر لا السائق الذي هرب ولم يعد.

مضت أكثر من أسبوعين والشرطة لا تزال تدب في شوارع مكة بسياراتها العتيقة تلتفت هنا وهناك بحثا عن سيارة هاربة كأنما كان الأمر لا يعدو أكثر من تأدية واجب ينتهي بانتهاء الجولة الأمنية، فيما كان الضابط في مكتبه يباشر العمل من خلال الجهاز اللاسلكي، ذلك الجهاز الذي كان مزهر يحلم أن يمتلك مثله بعد أن رآه ذات يوم في زحمة سير، حين وعد أباه بالنجاح المستمر من أجل أن يصبح "ضابط"، كما كان يقول، ليقبض على كل مخالف للأنظمة المرورية. لم يكن ارتداء بدلة الضابط حلم مزهر وحده ، كان حلم الحي بأكمله، فقد كان الآباء يحرضون أبناءهم في المدرسة على

المذاكرة من أجل امتلاك سيارة الشرطة الخضراء، وكانت أحلام الصبية تلوّن الحي بهذه السيارات، حين تقف كل سيارة أمام عتبة كل باب من أبواب البيوت المصطفّة على جنبات الحيّ. يحدث ذلك في مخيلة كل صبي، باستثناء المستكاوي الذي لم يكن يحلم إلا أن يكون فارسا لوضحى،حلمه الذي بهت تحت تأثير الفقد، فلم يعد حديثه عن تلك الفتاة التي أسقطته أرضا يفتح شهيته للمزاح وتقمّص شخصية الممثل البدوي ابن عجلان.

يذكر أن آخر عهده بمزهر كان قبل الحادث بليلة حين سمرا معا في فناء المنزل يتابعان بدهشة المسلسل البدوي وضحى وابن عجلان،في الليلة الأخيرة لمزهر قبل أن يبلغه نبأ الحادث الذي فقد بعده طعم أشيائه الخاصة اللذيذة.

لم يبذل المستكاوي أي جهد في البحث عن السيارة الهاربة، و لا التفت إلى كل ما أحاط بالحادث من ملابسات ، حتى عندما طلب منه بعض رفاقه التفكير في أمر الساحلي الذي قد يكون على علاقة بالسائق الهارب لم يرد بكلمة واحدة.

كان بعض رجال الحي قدّروا أن الساحلي قد يدلهّم على السائق الهارب بعد أن أشيع أن له علاقة بسائق آخر يأتي به إلى الحي في جيب شاصي مماثل، في بعض المرات التي يعود فيها متأخرا بعد غروب الشمس، وكانت الجيوب، من هذا النوع، قليلة جدا، لكن تشابهها لا يعني تشابه أصحابها أو أن لهم علاقة ببعض، بيد أن هذا منطق الذاهل حين يفجؤه الموت .

(١٥)

بدأ الحي يخرج من ذهول الموت حين شوهدت عقود الزفاف في الناحية الشرقية تمتد ما بين البيوت، وكان ذلك، بطبيعة الحال، أمرا متوقعا فيما يتعلق بأهل الحي في هذه الناحية ؛فقد كان مزهر من أهالي الناحية الغربية، ما يعني أن الحزن في أعلى الحي كان امتدادا وصدى يعكس التفاعل بين أفراد المجتمع الشعبي في مثل هذه الأحياء.

و برغم أن أهالي الناحية الشرقية لم يدّخروا حزنا ولا تعاطفا خصوصا فيما يتعلق بقضية السائق الهارب وضرورة البحث عنه في كل بقعة من شوارع مكة وأزقتها وأحيائها، وهو، بالفعل، ما حدث حين انتدبوا من بينهم نفرا من سائقي الباصات و اللواري والتأكيد عليهم بعدم الاتكال على الحكومة التي حتى لو بذلت جهدا في هذا الجانب فإنها لن تكون أحرص من أهالي الحي الذين هم أصحاب الشأن.برغم كلّ هذا إلا أنّ إقامة الزفاف في هذا الوقت لم تكن،بالنسبة لهم ، أمرًا غير مألوف ، أو خارجًا عن حدود اللياقة الاجتماعيَّة؛ و هذا ما ساعد على الإيذان بانقشاع الحزن الذي ظلّ وقتًا يلفّ الحياة في الحيّ باكتئاب و ملل كاد يؤثّر على سيرورتها .

حين بدأ ضجيج الحياة يعلو على الموت في الناحية الشرقية كان أول مظهر من مظاهره تلك العقود التي أضاءت الأزقة الخلفية، تلك المستندة على الجبل، قريبا من غرفة مسلط، ما جعل الحركة في هذه الجهة تزداد قياسا بما كانت عليه في السابق قبل أن يضيء الفرح هذه البقعة المنسية.

في هذه البقعة تحديدا يسكن، في غرفة شعبية متواضعة، عتيق الرابغي، نسبة إلى أهل رابغ، وكان من سكان الحي القدماء، الذين وفدوا في وقت مبكر.

مما يمتاز به عتيق عن بقية الوافدين حياده أثناء الخصومات القبلية التي تحدث بين فترة وأخرى، إضافة إلى مهارته الفائقة في العزف، خصوصا عندما يكون في حالة تجلّ، وكان يجيد العزف على العود والسمسمية، بيد أن هذه الأخيرة هي التي تصحبه كثيرا في احتفالات الحي. لا ريب أن صوت عتيق الشجي، المحايد، هو ما منحه هذه المكانة في نفوس أهل الحي، لكن هذه المكانة تزداد توهجا حين تبدأ حفلات السمر الشعبية فور انصراف الضيوف القادمين من الأحياء المجاورة.

قريبا من غرفة مسلط بدأ صوت السمسمية يتصاعد إلى أعلى. كان المستكاوي في هذه اللحظة يصارع الرغبة القديمة محاولا كبتها، فهو يعرف أن ذهابه إلى حفلة السمر كسر لشعور الحزن الذي يحرص على بقائه وفاء لمزهر، كما يشعر أن استجابته لرغبته فيها نوع من الخيانة لصداقتهما. جعله هذا الشعور يحارب فكرة أن يذهب إلى حفلة السمر،ليس فقط من أجل أن يبقى فترة أطول مع الحزن، بل أيضا خشية أن يعدَّ رفاقه ذلك من النسيان لصداقة مزهر وهم الذين يعرفون عمق العلاقة بينهما، بيد أن المستكاوي لم يتمالك نفسه تحت تأثير الرغبة الكامنة في أعماقه بغية استئناف حياته فوجدها فرصة سانحة حين أصرَّ بعض رفاقه على أن يصحبهم إلى حفلة

السمر تعاطفا معه وحرصا على أن يخرجوه من عزلته التي لم يبرحها منذ وفاة مزهر.

في الطريق إلى حفلة السمر صادف أن رأى المستكاوي و رفاقه نافذة بيت الساحلي تومض بضوء كليل. عرفا أنه ضوء السراج المعلق داخل الصندقة. كان هذا الضوء، في مثل هذا الوقت، لافتا و غير مألوف، فمنذ أن عرف الحيُّ غنيمَ الساحلي وسراجه الكليل يغلق أجفانه مبكرا، ولم يعهد أحد من أهل الحي، كبارهم وصغارهم، أن يظل الساحلي إلى هذا الوقت وهو لم ينم. لابد أن في الأمر ما يستحق، لكن ما الذي يجعل رجلا مسنا يسهر إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ سؤال طرحه أحد الرفاق، غير أن المستكاوي أنهى كل الشكوك حين أخبرهم أن كبار السن لا ينامون في الليل وإن بدا أنهم كذلك، كما ذكَّرهم بحرص الكبار، في مثل هذه السن، على الصلاة، ومن أجل هذا ينامون مبكرين.

لم يكن هذا الأمر غريبا على المستكاوي الذي رأى أباه على مثل هذه الحال مرات كثيرة، كما رأى جده لأمه في إحدى الليالي التي اضطر فيها إلى المكث في بيت خاله حتى ينتهي المسلسل البدوي.

سأل أحد الرفاق المستكاوي، إن كان مازال يفكر في اقتحام بيت الساحلي، خصوصا أن رجال الحي بدوا أكثر إلحاحا من قبل، بعد أن رأوا أن كشف غموض الساحلي قد يكون له علاقة بالوصول إلى السائق الهارب، وهذا، بحد ذاته، كاف ليدفع بالمستكاوي إلى تجديد فكرة الاقتحام والتسلل

إلى البيت لمعرفة ما إذا كان الساحلي متزوجا بالفعل، كما أشاع سراج، وفي هذه الحالة قد تنكشف أشياء كثيرة غامضة في الحي.

شعر المستكاوي أن هذا التفكير لم يعد مناسبا في عمر مثل عمره، فالحياة ليست مسلسلا بدويا نحاول الوصول إلى نهايته بطريقة غريبة كهذه. مزهر دهسته سيارة في حادث مروري طبيعي، وما يعتقده رجال الحي في الساحلي ليس لأنهم يتهمونه بالتواطؤ مع السائق. فقط هم يريدون الوصول إلى السائق بمساعدة الساحلي الذي قد يكون على علاقة بالسائقين في البلد، لكنهم لا يجدون مجالا للتواصل معه في ظل إصراره على الكلام المقتضب والصمت الطويل.

"يبدو أن الصغار فهموا الكبار بتأثير من المسلسل البدوي الذي يشاهدونه كل مساء في أفنية منازلهم".

هذا ما هجس به المستكاوي حين سئل عن مدى تفكيره في اقتحام بيت الساحلي، فاكتفى بإجابة مقتضبة: " ليس هذا وقته " .

كان سراج المعتوه، بالفعل، قد أثر على كثير من أهل الحي، ولم يكن شعور أهل الحي تجاه الساحلي، في هذه الأزمة تحديدا، سوى استجابة لما يمليه سراج من تصورات غريبة عن الساحلي، حين ردد أكثر من مرة أن الساحلي هو الذي دهس مزهر بالسيارة الجيب، وبرغم أن الساحلي لم يحدث أن قاد سيارة بنفسه أمام مرأى أهل الحي، إذ غالب وقته السير على الأقدام، وفي حالات نادرة يعبر راكبا مع سائق جيب، حين يكون الوقت

متأخرا، إلا أن أهل الحي تحت تأثير أحاديثه المختلقة استمسكوا بهذا الحبل من بين الحبال التي يعتقدون أنها قد توصل إلى السائق الهارب.

وصل المستكاوي ورفاقه إلى حيث يتحلق عدد غير قليل من الشبان، وقليل من كبار السن، حول عتيق الرابغي، و يبدو أن لحظة وصولهم قد تزامنت مع لحظة من لحظات عزفه الغارق في الشجن، إذ بدا لهم الصوت يحفُّ بالمكان، في نغم متصل لا يتخلله حديث أو حتى همس. حالة شاجية لم تنقطع إلا حين صدح المغنى بإحدى الكسرات الينبعاوية في امتزاج مع إيقاع النغم ما دعا المستكاوي إلى الدخول في عالم مختلط من الحزن والفرح، يتذكر حينا مزهر وأحلامه وتلك الأسرار التي تقبع في ذاكرته فيلمس الوجع الغائر متمثلا في حالة فقد غير طبيعية لصديق كان يشاركه لحظات الصفاء في الخلوات، وحينا آخر تلوح صورة وضحى، فتاته التي سماها على وضحى بن عجلان، فيعيد تلك المعركة الحاسمة في ذاكرته، يعيدها أكثر من مرة، مرة يطرحها ومرة تطرحه. ولابد أن الذين يتحلقون حول عتيق يخوضون الآن معاركهم الحاسمة على ضفاف هذا الصوت المحايد الذي يوقظ في أعماقهم مثل هذه الصور، وربما سافر ببعضهم إلى ديار بعيدة، وإلى عالم من الأساطير والبطولات المتخيلة. من أجل هذا كان عتيق خارج خصومات الحي، خارج تصنيفاتهم، برغم أنه، في حقيقته، وافد، وطرش بحر آخر، جاء إلى الحي، في رسالة ألقاها البحر إلى الساحل، كما يعتقد أهل الحي، لكنهم لم يكونوا يصنفونه لاعتقادهم أنه صوت محايد مهمته الوحيدة في الحي العزف على

أوتار السمسمية والسفر بهم إلى أعماقهم التي تتحد في شعور مشترك يجبرهم على الصمت الحزين.

(١٦)

في حلقة الخضار، حيث تتشابك أصوات الباعة في فضاء السوق، والبسطات المبعثرة في ساحة جرول، ثمة خيمة تستند إلى جدار في زاوية من زوايا سوق الجمعة ، يجلس داخلها شيخ مسن من أصول إفريقية، تجلّل الوداعة محيّاه، و تبرز ملامحه المكية في لهجته و زيّه الحجازي حيث يعتمر عمّة أهل مكة بشكل دائم، ما يعني أنه، برغم أصوله البعيدة الضاربة في أدغال إفريقيا، مكي الانتماء، فمن الواضح أن مكة تضج داخل أعماقه بكل تفاصيلها وأزقتها.يظهر ذلك في لهجته وبساطته وتلك التعليقات الوقورة التي تخفي شبابه المكي خلف دعاباتها، وهي السمة التي تكاد تكون ظاهرة في سكان جرول، ممن وفد أجدادهم منذ قرن إلى هذا المكان المبارك الذي يحمل قداسة لا يشعر بها غيرهم، برغم أن ألفة الإقامة أنست الأبناء ما كان يشعر به الأجداد من قبل، حين بدأ حس القداسة يخفت مع امتداد سلسلة النسب إلى أن صار بإمكان الوافد إلى مكة تمييز هؤلاء السكان المجاورين للحرم، فقد كانت لهم لهجتهم الخاصة، ولهم عبثهم الخاص أيضا، إضافة إلى ما يظهر عليهم من فروق اجتماعية تميزهم عن سكان الشعاب المكية من القبائل التي تقطن أطراف مكة.

و برغم أنّ حمادي التكروني وفد إلى مكّة صغيرًا في إحدى قوافل الحج إلا أنّه كان أشبه بهذه العوائل التي تجذّرت في مكّة منذ القدم .يبدو حمادي التكروني لمن يراه دون الخمسين في حين أنّه قارب السبعين من العمر .مردّ

ذلك إلى تلك الروح الكامنة في أعماقه ،روح جعلت وجهه يبدو صقيلا ،ناصع السمرة ،لا تظهر على سطحه تجاعيد الزمن الطويل بخلاف غنيم الساحلي الذي تنعكس عليه بشكلٍ لافت حتى يكاد يظن رائيه أنّه وُلِدَ بها و كان غنيم الساحلي ،الصديق الحميم لحمادي ، يدرك هذا الفارق بينهما و يعزوه إلى الروح الشابّة التي يتمتّع بها صديقه، فيجعله يحتفظ بهذا البريق ،و كثيرًا ما كان الحديث يقودهما إلى تعليقات محفّزة و ساخرة حين يحتفيان بالحياة معًا ، فيتجاذبان الحوار الحميم :

" لون بشرتك يحتفظ لك ببريق الشباب الراحل"

يقولها الساحلي بعد أن يتسلّق بنظره وجه حمادي الخالي من النتوءات، فيردّ حمادي بدعابةٍ ساخرة :

"الأفارقة السمر يحتفظون ببريق العمر كما يحتفظون ببريق الأسنان ،و لولا تلك اللكمة التي تلقّيتها في إحدى معارك الشباب لكانت ابتسامتي أكثر جمالا من هذه الابتسامة المثقوبة بالأسنان الذهبيَّة"

يجيب الساحلي في غبطة ظاهرة :

" لولا روح الشباب فيك ما كانت هذه الابتسامة التي توزّعها على كلّ من في السوق".

يعرف الساحلي أن صديقه حمادي يختزن تجارب عميقة تمتدّ من حلقة الخضار إلى شارع المنصور ،حيث البيوت الشعبيّة المتراكمة بشكل عشوائي في غرب مكّة ،إلى تلك الأكواخ المبنيّة بالقشّ في النيجر ،تلك التي تركها

خلفه منذ طفولته ، بيد أنها لا تزال عالقة بذاكرته ،خصوصًا تلك الفترة التي شهدت مرض الكوليرا ،ذلك الوباء الخطير الذي فتك بأهل القرية ،فكانت أسرته بكاملها إحدى ضحاياه حيث لم يسلم منه أحدٌ سواه ،فاضطرّه ذلك إلى سلسلة من الأسفار المنهكة المتقطّعة حتى وصل إلى مكة و استقرّ في شارع المنصور بعد أن وفد مع قافلة للحجّ قضى فيها مسافة السفر خادمًا . نما لاحقًا و تشجّر في عائلة كما يفعل الأفارقة جميعهم ،و بعد أن كبر و بلغ سنّ الشيخوخة رأى أن يكون قريبًا من الحرم ، فاعتزل في خيمته بجرول تاركًا أبناءه يتفرّقون في شوارع مكة سعيًا في طلب الرزق ،حيث امتهن الذكور الأربعة مهنًا صناعيّة مختلفة ،في حين اكتفى الفتيات الثلاث بالبيع في الأسواق الشعبيّة و إعداد أبنائهنّ لمستقبل مهنيّ يحفظ للأسرة استقلالها .

حكاياتٌ كثيرة كانت تنسجها تلك الأحاديث التي تدور بين حمادي التكروني و غنيم الساحلي ضحى كلّ جمعة ،و هي العادة التي يحرص عليها الساحلي و لا يتخلّف عنها بسبب ما يجده من شعور يعيده إلى الأيام الخالية ؛ إذ تشحذ ذاكرته مدة أسبوع كامل .

في المقابل كان حمادي يعدّ الساحلي الرجل المكمل لرؤيته الغائبة في شقّها الآخر ،فقد كان يبادله الاستماع لتجاربه في ينبع النخل ،و يجد متعة في تلك الأحداث التي تخصّ الصراع بين أبناء النخل و أبناء البحر في مدينة ينبع ،بل إنّه أحيانًا يتقمّص دور أبناء البحر و يتبنّى موقفهم بحجّة أنّه ممن

قذفه البحر إلى الساحل ،ليمتدّ الصراع بينه و بين الساحلي في مشهد ساخر تتخلّله دعابات و مشاكسات تأخذ شكل الصراع العنصري الحميم .

كان غنيم الساحلي يبكّر يوم الجمعة، في الطريق إلى الحرم، من أجل أن يقضي الساعات التي تسبق الصلاة في خيمة حمادي التكروني يتبادلان فيها أحاديث السوق، وحكايات الناس، والأهم من ذلك ما يحدث من سجال شعري يصل أحيانا إلى المفاضلة بين الرديح :الفلكلور الينبعاوي، والمزمار: الرقصة المكية الأفريقية.

في هذا المكان خاصة يتخلى الساحلي عن صمته، ويتجاوز الاقتضاب في الكلام إلى الاتساع المفصل، حين يبدأ في شرح قوانين الكسرة لحمادي التكروني، وإصراره على أنها جنس شعري لا يجيده سوى أهل ينبع، في حين يبدو الآخرون مقلّدين يغترفون من بحرهم ويسيرون على حذوهم، وكثيرا ما يقصّرون عن المجيء بالمطرب الذي يستند إلى تجربة من تجارب الحياة .

في الوقت نفسه يحاول حمادي التكروني نقض هذا الرأي بإثبات أن أهل مكة، وخصوصا عيال جرول كما يسميهم، ليسوا أقل قدرة من الينبعاوية على كتابة هذا النوع من الشعر، كما أنهم يفوقون غيرهم في رقصة المزمار، ملفتًا إلى أن المزمار المكي يرتكز على الإيقاع الصوتي مهملا المعنى، وهذا هو المراد من الرقص حتى لا ينشغل الراقص عن الحركة بمتابعة الشعر، ومن أجل هذا الإيقاع الرامز يتم خطف الكلام في عبارات إشارية لا تبعد عن الحركة في المزمار.

و قد بدا لغنيم الساحلي نوع من التشابه بين الرديح والمزمار في مسألة الإيقاع ،بيد أنّه أضاف ،إلى ما ذكره حمادي ،فرقًا يراه في غاية الأهمّية هو أن المزمار ينحاز إلى الحركة أكثر، في حين تنحاز الكسرة إلى المعنى أكثر، وهو ما جعله يتفق مع حمادي التكروني في هذا الجانب متسائلا عن سر ولع الأفارقة بالرقص، حين أجاب حمادي أن الإفريقي يرتكز في كل شؤون حياته على الجسد ،و رقصه نوع من التباهي بجسده والتعبير به عن الحياة، وهي الفكرة التي يقوم عليها المزمار:

"مجموعة شبان مفتولي العضلات، يرقصون رقصا عشوائيا، موقَّعا، يعبرون بعبارات مقتطعة من سياقات الحياة، فتبدو خالية من المعنى، للإشارة إلى أن الحياة، في جوهرها، حركة متصلة لا تتوقف عند عبارة بعينها".

يعترف حمادي التكروني أنه لم يكن يفهم رقصة المزمار هذا الفهم الحركيّ الرامز لولا أنه، بالمصادفة، سمع أحد شيوخ الطرق الصوفية يتحدث عن الرقص الصوفي بمثل هذا التعبير، فشعر أن المزمار قريب من هذا التصور، خصوصا أنه لعبة شعبية قادمة من أدغال إفريقيا، وفي إفريقيا كل شيء، حتى اللعب والغناء، ينطلق من شعورهم أن هذا دين، وله علاقة بحياتهم التي يتشبثون بها إلى آخر رمق، ما جعله يلتفت إلى الساحلي قائلا، في ابتسامة عريضة: " الأفارقة يرقصون حتى و هم في مواجهة الموت ".

ربما كان هذا ما دفع الساحلي إلى الارتياح العميق لحمادي التكروني، فقد شعر أنه يشترك معه في هذا الطرب الخفي الذي يجده يوم كان يسير

بمحاذاة البحر، في قريته بينبع. كان، كما قال حمادي بالفعل، يشعر أن خطواته على الساحل رقص يحتفل بالحياة إلى آخر قطرة، وهو، ما كان، يحسّه و يراه في الساحليين حين ينزلون البحر، فقد كان يرى ذلك في حركتهم، ويسمعه في غنائهم الذي يروِّضون به الموج حين يهدر.

كل هذا جعل الساحلي يخلع عباءة شيخوخته كما يخلع صمته، ليرتدي قميص السوق الصاخب، مستمتعا بحركة الناس وضجيجهم، مصغيا لأحاديث حمادي التكروني وتأملاته التي يوزعها على ما يحدث في السوق، إلى درجة أنه، في بعض الأحيان، يتعمد خلق جدل حول عامل عابر أو بسطة متناثرة أو بائع منهمك في ترتيب بضائعه ليستفز حمادي للتعليق.

في هذا اليوم، تحديدا، قدم الساحلي إلى السوق فلم يجد حمادي في خيمته، فاضطره ذلك إلى الجلوس وحده، يرقب السوق بسأم، يتابع البعوض الذي يتنقل بين بسطات الباعة.في هذه الأثناء كان نفر من الحي مشغولين في ساحة البرسيم المجاورة للخيمة يحملون بضائعهم متجهين نحو الوانيت الواقف بجوار حلقة البرسيم. حين رآهم الساحلي تراجع قليلا، متفاديا نظرهم، ما جعله يغيب عن نظر عامة السوق داخل الخيمة، بيد أن أحد الصبية رآه قبل أن يختفي داخلها، و كعادة أهل الحي حين يرون أحد الجيران في السوق أشار الصبي إلى الخيمة،مؤكّدًا أنّه رأى الساحلي جالسًا في طرفها.

كان تراجع الساحلي واختفاؤه داخل الخيمة أمرا طبيعيا بالنسبة لشعوره تجاه الحي، فالعزلة التي يعيشها في بيته، وعدم امتزاجه وتفاعله مع نسيج الحي الاجتماعي فرض عليه مثل هذا التصرف لا إراديا، على العكس تماما حين يتعلق الأمر بحمادي التكروني الذي يبدو أنه منسجم معه، وهذا ما يجعل الساحلي يتبسَّط في الحديث، ويتخلى عن طريقته التي عرفها أهل الحي عنه؛فليس للساحلي تحفّظ على أهل الحي، لا من جهة أخلاقهم ولا من جهة كرمهم حين يتعلق الأمر بمناسبة تحدث في الحي، أو بحديث عابر تتلوه دعوة ملحّة، لكنه مع ذلك يجد نفسه خارج نسيجهم الاجتماعي. هل هي طبيعة التجمع القبلي الطارد مهما بدا أليفا؟ هل لذلك علاقة بطبيعته الساحلية التي تميل إلى العبور والتخفف من العلاقات الاجتماعية المتشابكة؟ ربما كان ميله لحمادي التكروني راجعًا إلى أنه لا يؤدي، بالضرورة، إلى شبكة من العلاقات التي تفرض على مثله في آخر العمر نظاما صارما لا قِبَلَ له به في مثل هذه السن. ذلك ما يشعر به الساحلي في أعماقه و إن لم ينطق به ،فحمادي التكروني لا يمتد إلى أبعد من أطناب خيمته، كما أن بساطته و رغبته، هو الآخر، في أن يكون على الساحل، كأي طرش بحر ،كما يقول ذلك عن نفسه في دعاباته، تغري كثيرا باتخاذه صديقا على ساحل الحياة.

(١٧)

تشكَّلت للساحلي شخصية أسطورية في الحي نسجتها تلك الحكايات التي نشأ الصبيان عليها فيما يسرده النسوة قبيل الغروب حينًا، وقبيل النوم حينًا آخر، ما جعل الجيل الجديد من الصبية الصغار يتحدثون عن الزفة السمراء وكأنها من زمن سحيق لم يشهدوا أحداثه، كما يتحدثون عن مزهر الذي دهسته سيارة لم يستطع أهالي الحي القبض عليه إلى يومنا هذا، وبطريقة أو بأخرى كانوا يروون قصصا عن الساحلي الذي كانت له علاقة بهذا الحادث لكنه لم يبح بها، وهو ما جعله في عزلة فرضها عليه أهل الحي في بيته المهجور.

تحت تأثير هذا المد الحكائي كانت شخصية الساحلي تكبر وتتسع إلى درجة لم يعد في وسع أحد السيطرة على ما يصح وما لا يصح مما ينسب إليه، فالنساء ليس من عادتهن التحقق مما يروين للصبية؛ فالمهم لديهن ثمرة حكاياتهن عنه حين يضمن بقاء الصبية تحت أنظارهن، كما يستثمرن ذلك في هدهدة ما قبل النوم حين توغل حكاياتهن في عمق الأساطير الشعبية.

أما الرجال فبرغم أنهم كانوا أقل حديثا عن الساحلي إلا أنهم يصادقون على غرابته وبعض ما يتعلق بأسرته التي ابتلعها البحر في قريته الساحلية البعيدة، كما لا يرفضون فكرة أن له علاقة بالزفة السمراء التي حدثت في الحي، بل ويؤكدون ذلك استنادا إلى ما حدثهم به بعض التجار في جرول من أن له علاقة مع حمادي التكروني.

لم يعد الساحلي، كما عهده أهل الحي، يعبر الشارع بطريقة يومية، إذ قل خروجه من البيت، فصار يقتصر على خروج أسبوعي كل جمعة، مع بعض الاستثناءات التي تكسر هذا النمط الجديد، حين يخرج لبعض شأنه في فترات متقطعة بين الجمعتين.

من المؤكد أن الساحلي، بعد أن تغيَّر نمط حياته اليومية ، قد قصر علاقاته الخارجية على حمادي التكروني إذ يبدو أن خروجه الصباحي من يوم الجمعة كان، فقط، لهذا الغرض، بالإضافة إلى صلاة الجمعة في الحرم التي هي أساس عمله في هذا اليوم . مع ذلك ظل الساحلي بالنسبة للحي ذلك المجهول الذي يخفي وراءه أسرارا كثيرة و علاقات لا تقتصر على حمادي التكروني فحسب، بل تمتد إلى ما وراءه ما جعل بعض ما أشيع عنه يحمل محمل اليقين، فالساحلي هو عريس تلك الليلة الغريبة التي عبرت الحي سريعا دون أن تمكث طويلا، والرجال السمر الذين كانوا يرقصون المزمار هم أصهاره، ويبدو أن حمادي التكروني هو النسيب الأقرب إليه، لكن كل هذا لم يعد مجديا الآن ، فليس هناك ما يترتب على هذا الزواج من أثر. في الأخير يظل الأمر متعلقا بالساحلي نفسه إلا إذا كان خبر النار صحيحا ، تلك التي يقول سراج إنه رأى الساحلي وزوجته يشعلونها آخر الليل في ناحية الجبل. في هذه الحالة لابد من حمل الأمر محمل الجد وعدم التهاون فيه لأن ذلك حتما سيضر بمستقبل الحي.

ذلك بعض ما يدور في مجالس الحي حين يتعلق الأمر بالساحلي الذي يبدو أنه صار حالة خاصة، وبرغم أن الأحاديث حوله لا تطول إلا أن الانطباع عنه لم يتغير، فما يزال ذلك الغريب الوافد، الخارج عن مألوف الحي، حتى وهو يتقلص داخل صندقته ويلم أطراف حياته من العالم الخارجي مكتفيا بسريره ومذياعه الأثير.

ربما كان المستكاوي هو الشخص الوحيد في الحي الذي، منذ حادثة مزهر، وهو يقترب من عالم الساحلي، لا من جهة معرفة أسراره المخبوءة كما يدّعي أهل الحي، و إنما من جهة الشعور الذي بدأ يشكّل حياة المستكاوي ويغيّر قناعاته تجاه الآخرين ، فقد صار يشعر بالساحلي أكثر، كأنما لمس في قرارة نفسه سر الساحلي الكامن في أعماقه، ما جعله أكثر ميلا له، وأكثر أهل الحي اعتذارا له ولعزلته التي جربها عقب وفاة مزهر.

ربما كان المستكاوي هو، بالفعل، من اقتحم بيت الساحلي واستطاع الدخول في عالمه الغريب حين قرر العزلة التي شعر فيها ببعض ما يجده الساحلي في هذا البيت المهجور، فبدا له أن كل ما يدّعيه أهل الحي بدءا من الزفة السمراء، مرورا بعلاقة الساحلي بحادثة مزهر، و انتهاء بما يرويه سراج ، بدا له كل ذلك ضربا من الوهم والظن الكاذب، إذ كل الأشياء يمكن أن يتقنع بها المرء فيخفي بها حقائقه عدا العزلة التي لا يمكن أن تكون قناعا في يوم من الأيام. يستحيل أن يعيش الساحلي كل عمره في الحي معتزلا الناس لمجرد أنه يمثِّل أو يستدرج أهل الحي لمستقبل مخبوء كما يعتقدون. كل هذه

التصورات أملاها الصراع القبلي بين أهالي الضفتين في الحي، فكان الساحلي هو الضحية، و من عادة المجتمع القبلي دائما اتهام الغريب حتى تثبت براءته، ولأن الساحلي معزول في عالمه كان من الطبيعي أن يمتد هذا الشعور نحوه دون تغيُّر، ولولا أن المستكاوي تلبَّس حالة الساحلي في عزلته بعد وفاة مزهر لما تغير شعوره تجاهه.

ذلك ،أيضا، ما كان عليه مسلط من البداية ، إذ لم يحدث أن دخل مسلط، منذ كان في غرفته، في أحاديث عن الساحلي، وبرغم أنه وقتها كان موجودا في الحي، قبل أن ينتقل إلى حي التشاليح، إلا أن انهماكه في العمل أدخله في عزلة قريبة من عزلة الساحلي فجعله ذلك لا يلتفت إلى كل ما يقال من حكايات، بل، في بعض الأحيان، يسخر منها مبشِّرًا الحي بصناعة منظار فضائي لمراقبة تحركات الساحلي في الأحياء المجاورة، وبرغم أنه قال ذلك على سبيل الدعابة، إلا أن بعض الصبية، في ذلك الحين، حملوا وعده محمل الجد ويعتقدون أنه انتقل إلى حي التشاليح لهذا الغرض.

في المقابل كان الساحلي يعيش عالمه الصغير داخل صندقته، لكنه مع ذلك يتسع حين يفتح المذياع فيستمع إلى أخبار العالم. يشعر الساحلي حين يستمع إلى هذه الأخبار بقرب انتهاء العالم؛ فالأحداث المتسارعة، والحروب التي لا تخلو منها منطقة على وجه الأرض، حسب ما ينبعث إليه من ثقوب المذياع، تشير إلى ما يصيب هذه الأرض من خراب يوشك أن يمتد إلى صندقته في هذه الزاوية من الحي، ومع أنه يعتقد أن هذه الأحداث في

الطرف الأقصى من الأرض إلا أنه يراها في مخيلته أشبه بنار تشتعل في طرف الحي المجاور، وستظل تشتعل حتى تأكل الأخضر و اليابس. يقول في نفسه: "كل هذه المفاوضات لا تحل الصراع الذي يدور بين الناس على الأرض، بدءا من هذا الحي، وانتهاء بآخر بقعة في أقصى الأرض. لا يوجد حل سوى العبور، فالإنسان عندما يستقر في أي مكان تبدأ مشكلاته، حتى في علاقاته مع الآخرين لابد أن يكون عابر سبيل".

تلوح في ذهنه، الآن، صورة صديقه الأثير حمادي التكروني، هذا الرجل الأسمر الذي يقف على طرف السوق يتابع الناس ويرقبهم دون أن يتورَّط في علاقات معهم، فيتذكَّر على الفور ما قاله حمادي نفسه:

" العلاقات الاجتماعية بقدر ما تحملك إلى الآخرين بقدر ما هي حمل ثقيل لا يمنحك الحركة إلا في حدود الناس الذين تعرفهم فقط ".

حينها يبتسم ويصادق على هذه الرؤية التي يراها بشكل واضح في علاقات الناس في هذا الحي، فهم لا يكادون يغادرون الحي حتى يعودون إليه عَجِلين، ولديهم انتماء يشعر الغريب بغربته، خلافا لحمادي التكروني الذي يستوطنه العابرون في سوق الجمعة بجرول.

(١٨)

في حي التشاليح، الحي الصناعي كما يسمى في تلك المنطقة، استطاع مسلط أن ينفصل عن السمطي، التاجر الأكبر في سوق التشاليح، وذلك بعد أن أسس له شركة استيراد وتصدير للسيارات القديمة، وهو أمر طبيعي ومتوقع في ظل موهبة مسلط القادرة على السيطرة على حي التشاليح بأكمله، فالمخترعات التي يتناسل بعضها من بعض، ولصوقها بحاجة الناس من أهل هذه الطبقة الاجتماعية التي تفضّل أسعار التشليح، مع ضمان جودة البضاعة، على أسعار وكالات السيارات. كل هذا كان مؤشرا مبكرا للسيطرة على السوق؛ فمسلط هو علامة الجودة، كما يردد كثير من الزبائن، إضافة إلى ما هو شائع بين سائقي الونشات الذين لا مانع لديهم أن يتعاونوا مع مسلط، بحيث يقومون بسحب السيارات المصدومة من موقع الحادث ونقلها على وجه السرعة إلى تشليح مسلط.

كان أبو نقطة، هو الآخر، قد اتسع بمحاذاة صديقه مسلط، فصار الوكيل الرسمي للونشات في حي التشاليح، وقد تم الاتفاق بينهما على هذا النحو: يقوم أبو نقطة بتأمين الونشات للتشليح تحت أي ظرف طارئ، في حين يقوم مسلط بتشغيل ونشات أبو نقطة وتوزيعها على التشاليح الأخرى، بحيث يضمن احتكار حي التشاليح لصالحه، كما يحتكر مسلط كل السيارات التي يتم سحبها من أماكنها، وبهذه الطريقة بسط الإثنان نفوذهما

على حي التشاليح، حتى شعر أصحاب التشاليح الأخرى بهذه الهيمنة فقرر أكثرهم تأجير مسلط محلاتهم مقابل إيجار سنوي.

و على الفور شرع مسلط في التأسيس لمشروعه التوسعي الكبير بغية سحب البساط من السمطي الذي يبدو أنه شعر بمثل ما شعر به الآخرون فساوم مسلط على الشراكة بين المؤسستين. تم الأمر بينهما في جلسة واحدة تعاقدا فيها على أن يقوم مسلط بإدارة الشركة في مكة في حين يدير السمطي شركتهما في جدة، وبذلك بسط مسلط نفوذه على مكة، ما جعله يطالب أبو نقطة بزيادة عدد الونشات والسطحات ومحاولة تغطية الطلب في أسرع وقت، اضطر بسببها أبو نقطة أن يستعين بشركات أخرى واستئجارها.

شعر مسلط بعد هذا التوسع أنه بحاجة إلى تغيير طريقته القديمة في التعامل مع الزبائن، فلم تعد الطريقة التقليدية مجدية، إذ ليس في وسع أي أحد أن يقوم بعمل كهذا بمفرده، وكانت طريقته التي اعتادها هي أن يقوم بمباشرة العمل تفكيكا و تركيبا ، كما كان يفعل في غرفته في حيه القديم، لكن هذه الطريقة لا تصلح في ظل وفرة الزبائن واتساع المكان. بسبب ذلك قام ببناء مقر للشركة قام بتخطيطه هندسيا بنفسه، يضم أربع غرف و صالة كبيرة تنفتح على الغرف الأربع، غرفة للإدارة، وغرفة للصندوق "المعاملات المالية"، وثالثة للمبيعات، ورابعة للاستيراد، أما الصالة الكبيرة فجعلها "كونتر" لاستقبال الزبائن.

في غرفة الإدارة يحدث كثيرا أن يلتقي مسلط ببعض أهل الحي، وبعض أصدقائه، لكن أكثرهم التقاء به كان أبو نقطة الذي تتجاوز علاقته بمسلط التعاون التجاري، إذ كان ما بينهما يمتد إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يخرجان معا إلى الصيد ، و كانت هذه العادة منذ أن كان أبو نقطة سائقا للونش في شركة السمطي نفسها التي كان يعمل فيها مسلط رئيس عمال.

حين يتحدث مسلط مع صديقه خارج حدود العمل تظهر شخصيته الفكاهية، الفلسفية، لاسيما حين يتعلق ذلك بالجانب الاجتماعي، أو حتى الجانب الرياضي في تحليل المباريات، فقد لاحظ أكثر رفاقه في العمل توغله في أعماق الناس، برغم أنه بعيد عن مخالطتهم وانهماكه في العمل، لكن البعض يعزو ذلك إلى أن مسلط يعمل بعين ويرصد الزبائن بعين أخرى، ولابد أن مهارته في التفكيك والربط قد أفادته كثيرا في هذا الجانب، وهو ما لفت إليه مسلط نفسه حين سئل عن ذلك، فأشار إلى أن عالم السيارات شبيه بعالم الناس، يحتاج إلى خبرة في التعامل، وهذه الخبرة يمكن استثمارها هنا وهناك، فالسيارات برغم أنها حديد أصم، إلا أنها، في جانب من جوانبها، ذات تركيبة إنسانية في هيكلها، وهذا بطبيعة الحال ناتج عن أن مصمم السيارة إنسان من الأساس، قد صنع السيارة وفقا لحاجاته ومزاجه، مثلا مزاج السيارات اليابانية يختلف عن مزاج السيارات الأمريكية، فالسيارة الأمريكية مريحة لكنها سريعة الخذلان، بخلاف السيارة اليابانية التي تمثل شخصية الياباني، ديمومة العمل مع فخامة أقل، ومن هذا الجانب يمكن

للخبير بالسيارات أن يكتشف ملامح الناس استنادا إلى ما يقتنون من سيارات، لماذا يفضّل الباكستانيون الكريسيدا الثمانين في حين يفضّل المصريون الكوريلا، خلافا للسوريين والفلسطينين الذين يفضّلون البيجو؟ .هذه كلها تدل على أن شكل السيارة يكشف المزاج النفسي لصاحبها. من هذا المنطلق كان مسلط يحلل شخصيات الزبائن فيتعامل معهم بناء على هياكل سياراتهم، وحين سأله أبو نقطة عن علاقة الونش بشخصيته، ابتسم،ثم قال مازحًا :

"أصحاب الونشات كلهم طبقة اجتماعية ناقصة التعليم، فالمتعلمون لا يسحبون سيارات الناس خلفهم ولا يتدخلون في شؤونهم، كما أن أكثر أصحاب الونشات ممن تركوا الدراسة مبكرا" .

كان مسلط، بالفعل، يستند إلى واقع اجتماعي ماثل أمامه، فأصحاب الحرف والمهن الصناعية مصنفون في الطبقات الدنيا من المجتمع، ولعل هذا ما جعل مسلط يبتكر عالمه الخاص في واقع يرفض هذا العالم ولا يحترم أصحابه، وقد كان انهماكه في العمل وعدم التفاته إلى ما يقال عن أصحاب التشاليح وسائقي الونشات ،كان ذلك سببا كبيرا فيما حققه من نجاح طيلة هذه الفترة الزمنية التي أوصلت شركته إلى هذه المكانة في عالم التجارة المهنية. يؤمن مسلط أن العمل الدؤوب والرغبة الصادقة هما سر نجاح العامل، وهما اللتان تمنحان العمل جودته؛ من أجل هذا لم يكن يخرج عن ميدان رغبته منذ غرفته الصغيرة في حيه القديم، حتى هذه الإجازة القصيرة التي اقتطعها من عمله

كانت برغبة وإلحاح من رفاقه الذين أكدوا له أن رحلة الصيد ليست أكثر من استراحة يتم فيها جلب طاقة جديدة للعمل، ومع ذلك لم تكن موافقته عليها لهذا السبب، وإنما لتجريب الدربيل السيّار بعد النسخة التطويرية الجديدة، حيث لم تتغير فكرته إلا أن تحويرا طفيفا طرأ يتمثل في قاعدة دائرية متحركة، بحيث يستطيع الرامي تصويب بندقيته في كل الجهات، وكان مسلط يريد أن يلغي به الدربيل القديم المسمى باسم السمطي، تحت اسم دربيل مسلط "السيَّار المطوَّر".

مسلط ،أيضًا، كان شبيهًا بالدربيل في تفرّسه حين يوغل في فلسفته خارج العمل ، فهو دائمًا ما يربط بين الناس و اهتماماتهم ، حتى على مستوى التشجيع الرياضي ،و لأنّه اتحاديٌّ عتيق فقد كان يرى أنّ تشجيع الاتحاد سمة بارزة في المهنيين ، ذوي الصناعات المختلفة ، و يعزو حبّه لنادي الاتحاد في أنّه يحرِّض على العمل ، فالاتحاد ، في رأيه ، رمزٌ للحياة الشعبيّة و حركة الناس ، خلافًا لنادي الهلال الذي لا يشجّعه ، حسب رأيه ،سوى أصحاب النفوذ و الوجاهة الاجتماعيّة ، و لهذا فأكثر مشجّعي الهلال مقلّدون ، يمثّلون التبعيَّة لغيرهم ، و قلّة منهم أصلاء في تشجيع النادي . ربما كان هذا الرأي مردّه إحساس مسلط بأنّ الهلال فريق حكوميّ ، في حين يرى في نادي النصر ملمحًا أسطوريّا ، و أن أكثر مشجّعيه من الذين تدهشهم القدرات الفرديَّة المتجاوزة و يتمتعون بخيال طفولي أسطوري، خلافًا للنادي الأهلي الفريق الذي صبغه أمين دابو بالمكر و الدهاء ، فانعكس

ذلك على ذائقة جماهيره .كان مسلط لا يتحدّث بمثل هذا الكلام ، و لا يحلل هذا التحليل ، إلا في حضرة مباراة ديربي الغربيّة التي لا تفوته ، و كان يحرص على مشاهدتها بجوار غرفته القديمة على تلّ الجبل ، في جوّ شعبيٍّ خالص .

(١٩)

تجاوز الصبيان ،الذين بقوا في المدرسة مرغمين ،أزمة الطفرة الاقتصادية التي ذهبت بكثير إلى المعدات الثقيلة ،و كان من حسن حظ المستكاوي أن باب المدرسة أغلق دونه، قبل أن يخرج إلى شارع المقاولات التجاري الذي عصف بأحلام كثير من صبيان الحي ؛فحين كبروا أدركوا أنهم تورطوا بالفعل في البحث عن الرزق بين أكوام التراب.

كبر المستكاوي على أحلامه القديمة عدا الحلم الذي طرحه أرضا في تلك اللحظة الفاصلة بين الطفولة و البلوغ، ومنذ ذلك الحين وفتيات الحي يكبرن في مخيلته حتى احتجبن دون أن يشعر بذلك. احتجبت وضحى، فتاته التي اختار لها هذا الاسم البدوي، بعد أن اكتشفت رجولته.

بعد وفاة مزهر تعثر حلمه في أحزانه التي امتدت قرابة عام كامل، لكنه ما لبث أن عاد يعصف به أكثر حين كبرت رغبته، وقد كان من الطبيعي أن يشعر بقوة هذه الرغبة في أعماقه بعد أن وجد نفسه مضطرا تحت ظروف السن أن يكبت كل ما كان يسمح له في مقتبل الشباب بالعبور في تعليقاته الساخرة التي صارت علامة فارقة في تكوين الانطباع العام عن شخصيته.

وجد المستكاوي نفسه أسير صورة لم تغادر مخيلته مع يقينه أن إطار الصورة قد انكسر منذ تلك اللحظة ، فمن الصعب على مثله في مجتمع الحي أن يخطو خطوة واحدة باتجاه وضحى، تلك الفتاة التي كان أقصى ما يمكن أن تعمله أن تكتشفه ثم تذهب إلى حيث قدرها، وهو ما كان، بالفعل،

حين شاع خبر زفافها. لم يتفاجأ المستكاوي، ولم يكن يقدّر في نفسه أن تكون عروسه، بسبب فارق السن لصالحها، مع المسافة الشاسعة بين العرقين ما يعني أن على المستكاوي البحث عن ثمرة قريبة من غصنه كما هي عادة الحي في مثل هذا الأمر، لكن حلم المستكاوي كان أكبر من الواقع المحيط به، وهذا ما جعله يؤخر بناء بيته القادم إلى حين العثور على فتاة تحل مكان وضحى.

قرّر الذهاب إلى الهدا، حين تذكّر صديقه جابر، لكن ذهابه هذه المرة بصحبة رفاقه الذين لم يعد الهدا غريبا عليهم؛ فالأسر، في الحي، كانت قد شرعت في الانفتاح على عالم جديد بدأ من تلك النزهات العائلية التي كان من الطبيعي أن تتجاوز عرفات إلى جبل كرا حيث شجر العرعر والأجواء الماطرة، وهو الحلم الذي طالما تباهى به المستكاوي قبل أن يكتشف رفاق الحي أنه عالم لا يختلف عن عالمهم إلا بتلك الطرق المتعرجة والأشجار المبعثرة وبرودة الجو على سفح الجبل، ما دعا أحد الرفاق إلى أن يسخر من المستكاوي في هذه الرحلة، حين ذكر أن شجر الرمان تحوَّل بسبب القردة إلى شجر عرعر ، وكان من حسن حظ المستكاوي أنه لحق بالزمن الأول .كان هذا التعليق مثار سخرية لاذعة تلقاها المستكاوي برحابة صدر بعد أن أدرك أن الهدا لم يعد ملكا له ولأبيه، كما أن جابر هو الآخر ليس الشاب الطائفي الوحيد على هذا السفح، إذ يبدو أن كل شيء قد تطور في الفترة الأخيرة. جابر نفسه صار بدينا، تغيَّرت أحواله، فحين التقاه المستكاوي في

حلقة الخضار لم يعرفه لولا أن مدهر الجبلي حارس شركة المواصلات، هو من دلَّه عليه بعد رحلة بحث لم تطل، فقد عرف المستكاوي أن أقرب طريق للوصول إلى جابر هو هذا الحارس الذي يبدو أنه أرشيف الشركة ومصدر معلوماتها، فبرغم كبر سنه إلا أن ذكاء أهل الجبال و حدّة نظرهم بقيا كما هما في زمن شبابه.

يذكر المستكاوي أن العم مدهر، كان من الرماة الماهرين وكان رجلا جبليا تظهر على ملامحه نتوءات الجبال و وعورتها، لكنه مع ذلك كان رجلا رقيقا حين يتعلَّق الأمر بصغار السن، فقد كان يحتفي به و بجابر حين يجلسان للحديث معه، يقص عليهما حكاياته في الشعاب المنحدرة تحت الجبال الشاهقة، ويخبرهما بكثير من الغرائب التي حدثت له في تلك المناطق المهجورة. كان العم مدهر، كما علم المستكاوي من أبيه، أعزب، بسبب مرض خاص، كما قال له، اتضح للمستكاوي فيما بعد أنه أصيب في موضع حساس أثناء تسلقه الجبال ففقد بسبب ذلك الرغبة. حين التقاه المستكاوي سأله عن أحواله فأجاب :

"كما كانت من قبل"

وأضاف:

" الرجل الجبلي لا يتغير "

بعد حديث تجوّل في الماضي قليلا سأله المستكاوي عن صديقه جابر:

"هل تغيّر أم بقي كما هو خلفًا لأبيه في الشركة؟"

حينها أشار إلى الحلقة المقابلة قائلا:

"جابر .. عاد إلى مهنته الأولى .. بيع الفاكهة و الخضار".

كان جابر، كما وصف العم مدهر، يجلس داخل بسطة كبيرة تحيط به الفواكه من كل جانب. ألقى عليه المستكاوي التحيّة وعرّفه بنفسه. حينها خرج من بين الصناديق وقد بدا مختلفا عن السابق. تبادلا أحاديث الذكريات على طرف البسطة، ووسط ابتسامات اللقاء الأول بعد زمن طال لم يغفلا قصص المستكاوي الساخرة، عرف من خلالها أن جابر تزوج بعد وفاة أبيه بشهرين، وقد ترك العمل في الشركة وعاد إلى مهنته الأولى.لم ينس جابر أن يعلق بسخرية على أحاديث المستكاوي فسأله عن الزواج، لكن المستكاوي أجاب بخيبة أمل متوقعا أن يكون مثل مدهر الجبلي في مستقبل الأيام، ما جعل جابر يملأ جنبات السوق قهقهة لفتت كثيرا من الزبائن إلى وضعهما ، إذ بديا لمن حولهما صديقا زمن مضى.

عَلِمَ المستكاوي، أيضا، أن جابر ينزل إلى سوق الكعكية في مكة بين فترة وأخرى، وأن تجارته هناك تلاقي رواجا في السوق.

خرج المستكاوي من عند جابر بعد أن أحسّ أنَّ ذاكرته تجددت ؛فمدهر الجبلي قد فتح كوة في رأسه رأى من خلالها نفسه يتسلق جبل كرا بحبال مشدودة إلى أعلى، فغاب في هذه الفكرة حتى وصل إلى رفاقه تحت شجرة العرعر الضخمة في الوادي.

كان رفاقه قد استبطؤوه، فيما هو يحمل الفاكهة قادما باتجاههم . حين أقبل عليهم بدا له أن الظل تقلص أكثر تحت الشجرة العجوز التي يبست أطرافها بفعل شمس الطائف الحارة.

في الجلسة ذاتها لم يبخل المستكاوي على رفاقه حين ذكر لهم طرفا من حكايات مدهر الجبلي الذي التقاه قبل قليل، إذ تذكّره، على الفور، حين رأى شجرة العرعر وهي تلم أطراف الظل معلنة اليباس. أحوال الطقس والحديث عن الطبيعة هو الشيء الجديد الذي اكتشفه الرفاق في المستكاوي، وقد تعلق بهذه الهواية منذ فترة قصيرة، بسبب ولعه بالأمطار ومنابت الرعي وأوقات الزراعة التي كانت محل اهتمام الكبار حين يحل موسم الشتاء، و يبدو أن هذه الرحلة أيقظت تلك الأحاديث القديمة التي كان يستمع إليها باهتمام حين يتداولها رجال شركة المواصلات لمعرفة أوقات المطر كي يتجنبوا إصلاح الطرقات في هذا الوقت بالذات، وقد أعاده إلى موهبته التي اكتشفها الرفاق مؤخرا لقاؤه مع مدهر الجبلي، وزيارته الحميمة لصديقه جابر.

(٢٠)

شاع في الحي أن الجبل الجنوبي سيصبح مخططا سكنيا يعلو على الأهالي من الجهة الجنوبية المنبسطة، تلك التي شهدت مشروع المستكاوي أيام صباه؛ فتاجر العقار معتوق الدعبي، قد أشرف على الجبل مع بعض رجال الحكومة من موظفي البلدية، يقيسون المساحة ويقفون على مدى صلاحيتها للتجمع السكاني.

لا ريب أن سفح الجبل من أعلى يتسع لمخطط سكني كما ظهر للّجنة التي أشرفت على المكان، بيد أن المشكلة تكمن في امتداد الصكوك المتعلقة بأراضي الحي من هذه الجهة، ففي عرف أهل الحي تعتبر الجبال وما اتصل بها تابعة للأرض المتفرعة عنها، وبحكم أن أكثر أحياء مكة شعاب وأودية بين جبال ،كان لابد أن تتصل كل أرض بالجبل الذي خلفها، هذا بالإضافة إلى أن التجمع السكاني في الجهة الجنوبية سيجعل كل الحي منطقة مكشوفة يستوي في ذلك أهالي الجهتين، الشرقية و الغربية، ما يعني أنهما سيتحدان ضد خصم واحد هو العقاري معتوق الدعبي، صاحب الأحلام التوسعية الجديدة.

أخذ مشروع الدعبي يتسع في أحاديث رجال الحي، وبدا أن الحي مهدد بجبهة جديدة، جاءت هذه المرة من الخارج، و هذا، بالطبع، يحتم على الأهالي أن يلتفتوا إلى مشروع الدعبي من أجل إبطاله بشتى الطرق.

معتوق الدعبي، كما يروى عنه، عقاري محترف يعرف من أين تؤكل الكتف؟، وفي ذاكرة الأهالي أخبار شتى عن كسبه لكل قضية تتعلق بأية أرض ينازع عليها؛ ما يعني أن المسألة مسألة وقت فحسب، فالدعبي لا يفكر في مشروع عقاري إلا بعد دراسة سابقة يضمن عواقبها، كما يضمن أكبر عدد من موظفي البلدية لتيسير تنفيذ المشروع إن لزم الأمر، ومن هنا ليس في وسع رجال الحي إلا التحرك بسرعة قبل أن يوضع أساس المشروع.

وبرغم أن تضفير الجبل قد بدأ فور السماع بمشروع الدعبي بغية قطع الطريق عليه أو حتى الظفر بالتعويض في أسوأ الأحوال، إلا أن هذه الطريقة لم ترق لبعض رجال الحي الذين أبدوا تذمّرهم من هذا التسابق المحموم، أو ما يمكن تسميته بالتوسع المضاد، فهو حيلة العاجز، إضافة إلى أنه جشع شخصي لا يراعي مصلحة أهل الحي عامة، فمن المعقول جدا أن ينضم هؤلاء التوسعيون إلى مشروع الدعبي ضد أهالي الحي بمجرد أن يلوّح لهم الدعبي بمطمع شخصي يرضي طموحاتهم التوسعية. وجد هذا الرأي أنصارا ضد التوسعيين الذين يبدو أنهم نسخ مشابهة لمعتوق الدعبي لولا أن قلة ذات اليد وقفت حجر عثرة في طريقهم ضد أن يحلموا بمشروعات أوسع، وعلى هذا الأساس احتدم الصراع في الحي بين التوسعيين الجدد و المنتمين للأرض بصرف النظر عن التملك الشخصي.

كان من بين المنتمين نفر من الشبان الذين يترأسهم محسن، في معركة جديدة من معارك الحي، وهي المعركة التي ليس بوسع الأساطير أن تدخلها،

فالانقسام داخلي، وسببه، هذه المرة، الدعبي، أحد أبناء القبيلة من خارج الحي، وهذا ما يجعل أية محاولة لإقحام الساحلي فيها، كما يحدث من قبل، ضربا من الوهم الساذج؛ فقد تجاوز أهل الحي هذا التفكير بعد أن تغيّرت نظرتهم للحياة ووصل أبناؤهم إلى مرحلة ناضجة من الدراسة جعلتهم يدركون أن كل الأساطير التي تختزنها ذاكرتهم هي من الوهم و قلة العلم، خصوصا تلك التي تتعلق بالساحلي وبيته المهجور، وكان هذا بسبب حركة علمية لا بأس بها لفتت أهالي الحي إلى ضرورة التعلم والتعامل مع الأشياء بمنطق العقل لا بمنطق العاطفة و الانتماء الأعمى للقبيلة.

كان مشروع الدعبي أشبه بالصدمة التي أيقظت الحي من نومته الطويلة على وهم يسمى الساحلي، حين فجَّر هذا المشروع التوسعي كل ما خفي من تطلعات و طموحات مخبوءة، فظهرت بسببه أطماع جديدة.كما كان فرصة للوقوف على تجربة الجيل المدرسي الجديد في التعامل مع الأحداث التي تواجه الحي و تهدد مستقبله، وقد بدا من ردة فعل الشبان أن التعامل هذه المرة لن يكون بنسج الحكايات وخلق الأساطير وتطويق الضحية كما فعل الأهالي من قبل مع الساحلي، بل على العكس هرع الشبان إلى كل من في الحي من كبار السن، بما فيهم الساحلي، للاستفادة من تجاربهم القديمة في صراعات كهذه، كما أضافوا إلى تجارب كبار السن ما تعلّموه على مقاعد الدراسة، فظهر أن ثمة اختلافا جذريا حدث في تعاملهم مع المشكلات الجديدة التي أكدوا أن حلها لا يكون إلا بالوقوف على الشرع وعرف الناس

الذي لا يتعارض معه، فالحكومة لم تعد، هي الأخرى، نائمة عن مشكلات الأحياء الشعبية، حيث صار بوسعها التدخل في التفاصيل الأسرية فضلا عما يحدث من صراعات على الأراضي الحدودية بين الجيران.

كان الجميع يعرف أن مجرد مد جسور العلاقات الشخصية مع بعض موظفي الحكومة، خصوصا ما يتعلق بالبلدية، يمثل سلاحا فتاكا ضد كل من تسوّل له نفسه انتهاك المنطقة الجغرافية للحي، لكنهم يعرفون كذلك أن أكثر تجار العقار في البلد يسيطرون على هذا السلاح "الواسطة" ،و في كثير من الأحيان الرشوة ،فيحسمون معارك الأراضي الحدودية لصالحهم، والدعبي، بطبيعة الحال، ليس غريبا في مجتمع السوق العقاري وله فيه صولات وجولات. ماذا يمكن أن يفعل الشبان الجدد أمام هذه الترسانة من العلاقات الشخصية الضاربة في أعماق الحكومة وهم لا يزالون في بدء نضجهم العلمي؟. تداول الكبار مثل هذه التساؤلات في مجالسهم التي تحولت إلى محطات إخبارية موزعة في الحي ليس لها قضية سوى مستقبل الحي في صراعه القادم مع تجار السوق العقاري.

تراجع الجيل الأول عن واجهة المشهد، فظهر أن الذين تركوا الدراسة بسبب الطفرة الاقتصادية قد انتهى دورهم، بعد أن صار مستقبل الحي مرتهنا إلى الصراع حول الأرض، لا إلى بناء المساكن وتأمين العيش فحسب، كما تراجع المستكاوي الذي ظل زمنا محط أنظار الصبيان ببطولاته ومفارقاته الساخرة ومغامراته الشخصية، في حين بقي مسلط يتمدد بمحاذاة الحي،

محايدا كما بدأ، لا يلتفت إلا إلى شركته من الداخل، في لهاث مع الزمن والمخترعات الصناعية التي نذر نفسه لها بحسب احتياجات السوق من حوله.

كان محسن قائد الطليعة الشبابية في الحي مسكونا بهاجس القيادة منذ طفولته، لكن صغر سنه لم يمكّنه من ذلك بسبب سيطرة المستكاوي الأكبر سنا؛ ما جعل محسن يكتفي بأداور تمثل هذا الهاجس، إذ كان يتصدي إلى الأدوار التي تمكنه من ممارسة القيادة على مستوى الألعاب، فكان محسن يجد فرصته في تأدية دور الشرطي الذي يقوم بتسجيل الغرامات في مقابل دفع السائق الغارم مجموعة من أوراق الحلوى الملقاة على قارعة الطريق، و كان الصبية يجمعونها لهذا الغرض، فيما كان المستكاوي قد بسط نفوذه على مشروع كرا في هضبة الجبل الجنوبي وهو الحلم الذي لم يستطع محسن تحقيقه أو حتى منازعة المستكاوي فيه.

كانت تلك هي البذور الأولى لتكوين شخصية محسن ونموها في طريقه إلى سيادة الشبان و قيادة الحركة العلمية في الحي ، متكئا على مواقف تحتفظ له بالريادة في مجالات شتى ؛فتاريخ الحي يحفظ له أنه أول من ارتدى نعلا من الصبيان الذين كانوا يذرعون الحي حفاة غير منتعلين، كما يحفظ أنه أول من ارتاد المسجد مع رجال الحي، وقد ظهر أثر ذلك في شخصيته الجادة مختلفا بذلك عن المستكاوي، وهذا، بالطبع، ما جعل لمحسن ورفاقه الجدد حظوة في عيون كبار السن الذين تركوا لهم مسرح الحي.

بدأت ملامح الحي الجديد في نسج خيوطها بدءا من المناظرات العلمية الساذجة التي شكلت فريقين أحدهما يميل لعلوم الشريعة واللغة والآخر يميل للعلوم الطبيعية فيما يشبه بذور صراع جديد يرتكز على الفكر بعيدا عن جذور القبيلة والانتماء للمكان، وهو الأسلوب الجديد الذي أراد به الشبان مواجهة كل ما يحدث في الحي من مشكلات، بالإضافة إلى تهيئة الحي لمستقبل سيكون بإمكانه تجاوز كل العقبات القادمة بما فيها تاجر العقار معتوق الدعبي، فقد ظهر أن العلم هو السلاح الوحيد لبيان بطلان مشروعه من أساسه والتصدي له لا بالوثائق وتاريخ القبيلة وإنما بمنطق الشرع الذي يكفل الحقوق بين الجيران ويمنع الاعتداء على الآخرين.

(٢١)

لم يكن محسن يعتبر ما حدث في الحي من نمو معرفي و تغيُّر في تصورات الناس راجعا إلى جهوده الخاصة، أو حتى يفسّر ذلك بخوض معركة رد اعتبار ضد سيطرة المستكاوي القديمة على صبيان الحي، فكل ما في الأمر هو أن انتشار التعليم والوعي الجديد بدأ في تجديد ذاكرة الحي ولفت الناس إلى ما ينبغي، بدلا عن هذه الخصومات الثنائية التي كانت تظهر في الحي على مستويات مختلفة، قبلية، وجغرافية، وحتى رياضية، فقد كان الصبيان فيما مضى يترجمون هذا الصراع في ملعب الحي الترابي، حين يقسمون الفرق بناء على السكن، أو على القبيلة، أو الميول الرياضي، ما جعل الحي في صراع مستمر لا يهدأ إلا حين ينسدل الظلام معلنا نهاية يوم حافل قبل أن يستيقظ الحي، مرة ثانية، على أصوات الصبية منطلقين إلى الملعب لتمثيل دور جديد من أدوار الصراع الثنائي الدائم.

في المقابل أغلق المستكاوي ذاكرته و حاول استيعاب ما جد في الحي لكنه لم يجد نفسه التي غادرت مع أحلامه ففتح له كوة يدلف منها إلى العالم القديم تمثّلت في هوايته التي عرفها الرفاق فيه منذ زمن، حين بدأ يطرح نفسه كخبير في الطقس وقراءة اتجاهات الرياح، وبرغم أن هذه الهواية لم تكن محمولة محمل الجد في ذلك الزمن إلا أنها في الزمن الجديد بدت للمستكاوي كنوع من الوقوف على شرفات الزمن القديم وأطلاله ، خصوصا أن لحظة هطول المطر تعيد الحي إلى ذاكرته الأولى وتنبش ما تحت ركام الاسفلت

الذي هو الآخر زحف على الحي ليتضامن مع الزمن الجديد في نقلة نوعية بدا فيها أن الحي دخل في العالم الخارجي ولم يعد منكفئا على نفسه، وهو الأمر الذي استوعبه محسن ورفاقه، في حين ظل المستكاوي يحن إلى مواقع المطر وآثاره التي تمكنه من الوقوف على أحلامه القديمة.

يتيح المطر حين تسيل الشعاب فرصة للتجول على مرابع الطفولة ورصد ما درس من معالمها، سواء في السفح الجنوبي، أو في قمة جبل الحي الضخم، وهي من جهة فرصة أخرى للإشراف على الحي من أعلى ورصد أسطح المنازل حيث حبال الغسيل الممتدة مع ما يمكن مشاهدته أثناء هذه اللحظة الماطرة دون تثريب، أو حتى دون رقابة، فأهالي الحي، في هذه اللحظة خصوصا، متسامحون ولا يفرقون بين صغير وكبير، إذ يصبح الجبل حين يغتسل بالمطر مكانا مشاعا للجميع، وهي اللحظة التي تعيد للمستكاوي سلطة مؤقتة يمارس فيها دور الخبير الجغرافي والمناخي ريثما تنقشع السحب ويعود الجو صحوا، حينها يعود الحي إلى الإنصات لمحسن ورفاقه، معرضا عن المستكاوي الذي يعود، هو الآخر، إلى قراءة اتجاهات الرياح بحثا عن مطر قادم .

دعت هذه النقلة المستكاوي إلى عزلة ثانية، تختلف عن العزلة الأولى، حين قرر الدخول في عالم التأمل الخالص للكون والامتزاج بطبيعة الحي وتضاريسه المحيطة، فقادته هذه التأملات إلى اكتشاف طبيعة الحي بطريقة مغايرة عما كان يشعر به تجاهها في فترة الصبا، إذ بدا له الحي، في رؤيته

الجديدة، عالما متسعا يوازي العالم الخارجي الذي دخل مع دخول الإسفلت وأخذ يتسع فيه بعد أن تسلل إلى البيوت مع النوافذ ولاقطات الإرسال التلفزيوني، وهو الذي كان يعتقد أن الحي ليس أكثر من مكان معزول عن العالم في شعب مخبوء بين جبال مكة. قال ذلك لأحد رفاقه وأكد أنه اكتشف في الحي أشياء لم يكتشفها أحد قبله، وأن الزمن كفيل بإثبات صحة ما يعتقد، بيد أن ذلك حمل عنه محمل الهزل الذي طبع شخصيته منذ الطفولة، حين أشاع الرفاق أن المستكاوي صار فيلسوفا، وبدأ التندر به، وافتعال حكايات ساخرة تعزز اتجاهه الجديد، ذهب بعضها إلى التأكيد على أن المستكاوي في حالة تأهب جديد لخوض مناظرة مع محسن و رفاقه، وأنه سيتبنى الاتجاه العلمي الطبيعي، معتمدا على خبرته في التعامل مع الطبيعة وقراءة اتجاهات الرياح، خصوصا أن طفولة المستكاوي التي قضى كثيرا منها في الهدا ستمكّنه من إعادة الأنظار إليه بعد أن انصرفت عنه، ولا شك أن محسن ورفاقه سيواجهون خصما عنيدا لديه طريقته الخاصة في جذب الآخرين إلى الإنصات عندما يتعلق الأمر بالتأمل في جبال الحي وآثاره القديمة ونبش الذكريات التي من الممكن أن تكون سلاحا نافذا في يد المستكاوي.

ذلك ما حدث،بالفعل، حين بدأ المستكاوي في جمع أنصاره القدامى من رفاق الزمن الماضي، مع اختلاف في طبيعة التعامل، حيث لم يتكئ على الأساطير والمغامرات الوهمية التي كانت تتناسب مع الطفولة في ذلك الوقت،

بل فتح نافذة إلى التأمل في ملكوت الله، وهي الدعوة التي تتكرر في القرآن كثيرا، فأراد أن يدخل إلى مشروعه الجديد مدخلا دينيا يستطيع به إقناع الناس أن ما يمارسه من تأمل ،يحاول به تفسير الظواهر الكونية وتلمس أسرار الطبيعة في الشعاب والأودية، هو من صميم الدين، وأن العلم الذي يتلقاه المرء من الطبيعة أكثر أهمية من العلم المدرسي الذي لقي كل اهتمام الناس في الحي.

استطاع المستكاوي بهذا التفكير أن يثير جدلا واسعا بين اتجاهين كانا قد تسيدا واجهة المشهد في الحي، حين بدأ طلاب المدارس العامة يتبنون اتجاه المستكاوي، فيما اتجه طلبة المعهد إلى الاتجاه النظري الذي يعزز العلم الشرعي والأدبي، وبرغم أن محسن كان ممن درس في المدارس العامة إلا أنه كان يميل إلى الاتجاه النظري الذي وجد له أنصارا في الحي امتد إلى كبار السن، في حين لم يجد المستكاوي من يدعمه سوى قلة أعلنوا فيما بعد انسحابهم، فبقي وحده يتأمل أسرار الكون ويقرأ ملامح الحي الجغرافية بطريقة لا تخلو من العمق، برغم أن كل ما يقوله في هذا الأمر يحمل محمل الهزل، ومع ذلك لم يتخل عن أسلوبه الذي ظل، مع إصراره، ينمو نموا بطيئا ويتمدد في الحي بشكل خفي، يظهر أكثر حين يتلهف الناس للمطر الغائب، أو حين يظل الناس زمن الربيع فيحتاجون إلى نزهات البر ومشاهدة الطبيعة البكر في أماكن الرعي القديمة.

(٢٢)

فوجئ أهل الحي بعودة مسلط إلى غرفته القديمة بعد أن صار اسمه في سوق التشاليح جاريا على كل لسان، وكان مرد استغرابهم أن الغرفة القديمة لم تعد تليق بطموحات مسلط التي صارت أوسع من الحي بأكمله، حتى مرشودة التي كانت تحتفي بمسلط في الزمن القديم بدت لها هذه العودة مستغربة وغير مبررة في هذا الوقت بالذات، خصوصا أن ما يقلقها في هذا الزمن ليست الكلاب ولا الذئاب التي كان مسلط قد أراحها منها في تلك الفترة، فالدعبي بات هو القلق الجديد لمرشودة بشكل خاص، وللحي بشكل عام، وهو الأمر الذي جعلها تنصرف عن أغنامها إلى تضفير الأراضي المحيطة بها وملئها بحظائر الأغنام لإثبات أنها أراض مملوكة منذ زمن.

وبرغم أن أغنام مرشودة تناقصت مع مرور الوقت حتى لم يتبق منها سوى غنيمات معدودة للحليب والسمن الذي صار مطلبا لأهالي الحي بسبب ندرته وجودته في الوقت نفسه، بحكم أنها المصدر الوحيد له، وربما لهذا السبب احتفظت ببعض رؤوس الغنم بعد أن باعت حظيرة كاملة من حظائرها في حراج الأغنام. برغم ذلك كله إلا أنّ مرشودة كانت قد قررت بيع الأغنام بعد أن تقلصت مساحات الرعي بسبب الزحف الاسفلتي الذي طوّق كل الأحياء المكية في جهة الشمال، و لهذا السبب أيضًا باتت عودة مسلط مستغربة، فالزمن لم يعد مناسبا لصيد الكلاب والثعالب في ظل زحف مدينة مكة واتساعها في الأطراف، إذ من الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى هجرة

الثعالب ما يجعل عودة مسلط لممارسة هوايته القديمة في غير محلها، بيد أنّ القريبين منه يعرفون أنه لم يعد من أجل هذا الأمر، فمسلط نفسه يرى هواياته القديمة ساذجة بالنسبة إلى ما وصل إليه، كما يعد المصيدة الكهربائية من حكاياته التي يرويها في المجالس للتندر فحسب، ومع أنه لا ينكر أن ما وصل إليه كان بفضل تلك الموهبة الساذجة على حد وصفه إلا أن عودته كانت في الحقيقة امتدادا لمشروعه الجديد في حي التشاليح، فقد سمع من بعض موظفي البلدية الذين يجالسونه عن بعض القرارات المستقبلية التي تعتزم الحكومة إصدارها ، و كان الخبر قد وصله عن طريقهم في مقايضة منهم تهدف إلى الحصول على سلع مجانية أو مخفضة.

كان من بين هذه القرارات ما راج بين أهل العقار من أن الدولة تعتزم فتح نفق في صدر جبل الحي للنفاذ منه إلى الحرم مباشرة، ولأن موقع غرفة مسلط من أهم المواقع في الحي ،بالنسبة للجبل، أراد ترميمها وإعادة مصنعه القديم بما يتناسب مع توجه الحكومة حيث تحظى مثل هذه المشاريع بتعويض مجزٍ ، خصوصا حين تكتشف لجنة التسعير أنها متاحف قديمة لصناعات نادرة. لهذا الغرض عاد مسلط جالبا معه بعض المعدات القديمة من سيارات الشفر و الهينو و البيجو، تلك السيارات التي لم يعد لها وجود في الزمن المعاصر، وقام بتأسيس مصنع صغير، فيما يشبه المتحف، وضع فيه هياكل السيارات النادرة محاطة بأدواتها القديمة مع رسومات توضيحية وشروحات تفصيلية لاستعمالاتها والفترة الزمنية التي وجدت فيها، ولم ينس تأليف فريق

عمل لهذا الشأن، وهي فكرة كانت قد خطرت له حين سمع بالتعويضات الخيالية لأصحاب المصانع القديمة في مقابل البيوت التي لا تهتم اللجنة بتسعيرها حيث تبخس أصحابها في أكثر المناطق المعرضة للإزالة.

و كعادة مسلط كانت فكرة المتحف الصناعي تمخضت في حديث عابر مع أحد المهتمين بالآثار القديمة حين سأله عن فائدة هذه الآثار فأوضح له أنها من أنفس ما يباع في الأسواق الشعبية، مضيفا أن الدولة تقدّر هذه الهواية وتدعمها بالمال في حالة ما إذا تأكد المسؤولون من نفاسة هذه الآثار ، و على الفور بدأت فكرة المشروع تنمو بمحاذاة مشروعه التوسعي الكبير في حي التشاليح، زاده حرصا عليها موقع غرفته الاستراتيجي من الجبل بعد أن علم بعزم الدولة مستقبلا على تنفيذ مشروع النفق، وهو المشروع الذي تزامن، أيضا، مع ظهور تاجر العقار معتوق الدعبي في هضبة الجبل الجنوبي من الحي.

حين تبيَّن أن عودة مسلط لم تكن بريئة شاع خبره بين أهل الحي فشعروا أن الحي محاط بالأطماع والطموحات التوسعية فسخطوا على الوضع الجديد، فالدعبي يتربص بهم من ناحية ومسلط لم يعد ابن الحي الذي يحميه، بل صار هو الآخر خطرا عليه ، وهو الأمر الذي جعل مرشودة ،التي كانت تراهن على مسلط ،تجول ببصرها في أطراف الحي من جميع الجهات، تتأمل بعد أن وهن عظمها وبلغ بها الكبر مبلغه، وتتساءل قائلة بينها وبين نفسها:

"عادت الذئاب والثعالب من جديد. مسلط الذين كان يحاربها صار مثلها، لكن الخطر، هذه المرة، ليس على الأغنام، وإنما على الحي نفسه، على الأراضي التي إن تسلل إليها اللصوص، أو باعوها للحكومة مقابل تعويض مادي سيؤدي ذلك إلى هجرة اضطرارية، وربما إلى تشريد الأهالي في مناطق مبعثرة لا يستطيعون بعدها الاجتماع في مكان واحد".

شعرت مرشودة أن الخطر القادم يهدد مستقبل القبيلة كلها، وراحت تعلن بين النساء أن أي أحد يتضامن من أهل الحي مع الدعبي، أو حتى يفعل مثله كما فعل مسلط، فيقدم أطماعه على مصلحة الحي، فإنه في هذه الحالة يفقد معاني الرجولة التي من أجلها خلق الرجال، فالرجل هو الذي يحمي الأرض من الناهبين، لا ذلك الذي يحرص على حماية ماله فقط، أو يتنازل عن حقه مقابل مبلغ مالي لا يعوّض ما فات من عمره في بناء الحي الذي تعب السابقون في تأسيسه.

سراج، هو الآخر، كان أشبه بإذاعة متنقلة، و هو يوزع الشتائم على الدعبي ومسلط، فيما هو يذرع شارع الحي طلوعا ونزولا، مشيعا أن الدعبي، تاجر العقار، يريد هدم بيوت الحي وبيع الأراضي لمسلط الذي عاد لهذا الغرض.

كان خبر النفق القادم قد شاع في الحي فملأ المجالس بالأحاديث والتوقعات وما يمكن أن يؤول إليه حال الأهالي في المستقبل، ما جعل بعض سكان الحي يتهيأون للهجرة القادمة بدخول سوق العقار وشراء الأراضي

تحسبا لمثل هذه الظروف، فيما اكتفى البعض بانتظار لحظة الإخلاء وتعويض الحكومة ولديهم أمل أن يتأخر تنفيذ المشروع لكسب أكبر وقت من العمر داخل الحي، فيما أبدى آخرون رغبتهم في تنفيذ المشروع سريعا لقناعتهم أن الحي تحول إلى ساحة من الصراعات المختلفة، سواء على مستوى القبيلة، أو على مستوى الأطماع التوسعية، أو حتى على مستوى العلاقات الاجتماعية التي فترت بعد أن اتسعت أحلام الأسر وامتدت العلاقات إلى الخارج عن طريق مصاهرة الغرباء من خارج القبيلة، وهو ما جعل الحي نفسه يخرج قبل سكانه، ولم يبق منه سوى هياكل البيوت التي ازدحمت بالمستأجرين من الخارج، حتى إن الساحلي الذي كان أهالي الحي يعتبرونه غريبا صار بعد التطورات الجديدة والزحف السكاني من مؤسسي الحي ومن تراثه الأصيل، وهذا أكبر دليل على أن الحي القديم تآكل من داخله وتفتت تحت أطماع السكان الذين باعوا بعض أراضيهم للغرباء أو جعلوا بيوتهم شققا مفروشة للمستأجرين الجدد.

كان مشروع النفق في نظر هؤلاء حلا عاجلا لتهجير سكان الحي جميعهم، وإعادة ترتيب العلاقات من جديد، إذ بوسع أهل الجهة الغربية أن ينتقلوا إلى حي جديد يبدؤون فيه تأسيس مجتمعهم دون صراعات ولا أطماع، وكذلك الأمر بالنسبة لأهالي الجهة الشرقية الذين من المؤكد أنهم سينتقلون إلى مكان آخر بعيدا عن أهالي الجهة الغربية تحاشيا للدخول في صراعات قبلية، غير أن هذا الرأي لاقى رفضا قاطعا من المنتمين للحي الذين

فضلوا أن يبقوا إلى آخر لبنة تنقضها الحكومة، كما قرروا الوقوف في وجه الدعبي وأطماعه التوسعية، وإن لزم الأمر أن يعيدوا الصراع القديم بالعصي والحجارة حتى تتدخل الحكومة وتحسم الأمر إلى أن يحين وقت تنفيذ مشروع النفق المنتظر.

(٢٣)

منذ أن شاع مشروع النفق الذي عزمت الحكومة على تنفيذه و المجالس لا تكاد تخلو من الحديث عنه سواء كان هذا الحديث أصيلا في المجلس أو كان طارئا، عدا محسن ورفاقه الذين يبدو أن فكرة المشروع، من أساسها، لم تكن تعنيهم في كثير ولا قليل، فالمهم، كما يؤكد محسن دائما، مستقبل شباب الحي وضرورة صناعتهم لمواجهة الأحداث القادمة التي يبدو أنها لا تخص الحي وحده، فالعالم كله يستعد لتغيرات جذرية وتحولات من المهم الاستعداد لها بتربية الشباب على فهم دينهم وفهم ما يراد بهذه الأمة من كيد الأعداء، أما المحيطون بالحي فهم، في حقيقتهم، صورة مصغرة للمحيطين بالأمة الإسلامية، وعلى هذا فالاشتغال بمشروع النفق الجبلي اشتغال بغير المهم، لأنه ليس أكثر من طريق نافذ إلى الحرم، وهو عمل مشكور للحكومة إن لم يكن الهدف منه الاستثمار التجاري الخالص.

وبرغم أن ما يقوله محسن يبدو مقنعا في نظر الكثير من رفاقه إلا أن هناك من يؤكد على أن الاستثمار التجاري هو الهدف الوحيد لكل المعنيين بالمشروع، ولهذا فإن ما يقوم به مسلط فيما يخص غرفته أمر معقول، بل هو عين العقل، فمسلط، بطريقته هذه، يضع المستثمرين في حرج بين ترك المصنع الصغير و التعويض الباهض، و في الأخير هو حر فيما يملك، فيما يرى آخرون أن مسلط يلتفت لمصالحه الخاصة، وهذا الصنف من الناس ليس أقل خطرا على الحي من معتوق الدعبي، لأن المطلوب من مثل مسلط وقد تربى

داخل الحي وعاش طفولته فيه أن يقدم مصلحة الحي على مصلحته. لكن سؤالا آخر ينبثق من النقاش، فإذا كان مسلط يريد تقديم مصلحة الحي على مصلحته هل يعني ذلك أن يترك غرفته كما هي، في شكلها المهدم، لتأتي الحكومة وتعتبرها من البيوت القديمة التي لا تستحق التسعير، أو تسعرها بثمن زهيد. وسواء تخلى مسلط عن غرفته أو أعاد بناءها كما فعل، فالنفق قادم واللجنة ستقول كلمتها.

بدا النقاش ساخنا كما لو كان نقاشا يخص أرض فلسطين، وهي القضية الكبرى التي يرى محسن ضرورة تهيئة الشباب لها بالتربية وصقل المواهب، ومحاولة الخروج عن صراعات الحي القبلية أو صرف الأوقات في الأحاديث الجانبية عن النفق أو في الرياضة التي استهلكت أوقات الشباب دون فائدة تذكر، ما جعل شباب الحي يبدؤون جديا في التفكير عن التخلي عن متابعة كرة القدم التي كانت شغلهم الشاغل وسبب تجمعاتهم ونزهاتهم، وقد بدؤوا، بالفعل، في التناقص تدريجيا تحت تأثير الوضع الجديد، خصوصا أن محسن لم يكن المؤثر الأول في شباب الحي، فمحسن، هو الآخر، تأثر بأصدقاء من خارج الحي انتدب أحدهم لمساعدته في تكوين مجموعة من الشباب يكونون اللبنة الأولى في تغيير رؤية الأهالي إلى الحياة وإخراجهم من العزلة و التوجس من كل غريب.

يعرف محسن أنه سيلاقي صعوبة في قبول الشباب لفكرة أن يترأسهم شاب من غير القبيلة، لكنه يعول كثيرا على شخصية ماهر النشاب الجاذبة،

فهو الوحيد القادر على تغيير انطباع شباب الحي عن الغريب، و في خطوة استباقية كان قد هيأ الشباب على تقبل هذه الفكرة من خلال ضرب المثل بالساحلي الذي رفضه أهل الحي أول ما وفد، وظل في عزلة حتى فرضه الزمن عليهم حين توافد الناس وازدحم السكان في الحي.

في المقابل بقي بعض الشباب، يترأسهم المستكاوي، خارج فكرة الانضمام إلى مجموعة شبابية تتوجس من أهالي الحي وتعتبرهم خارج المجتمع الجديد حتى يؤمنوا بفكرة الشباب التي اجتمعوا من أجلها. يرى المستكاوي أن الدين في كل مكان، وأن التفكر والخلوة من أعظم الأسباب التي تجعل المرء مؤمنا، وبرغم أن الشباب، ومن بينهم رفاق المستكاوي، يرون التدبر عند المستكاوي نوعا من اللهو بالطبيعة وليس من العبادة في شيء، إلا أن المستكاوي وجد هذه الفكرة صالحة لتبنيها وتعزيزها في نفوس من حوله، وقد ساعده على ذلك عدم اهتمامه بإيمان الآخرين بها، لأنه يرى فكرته قائمة من أساسها على العزلة الفردية، وليست الجماعية كمحسن ورفاقه، كما قرر ألا يلتفت، كما كان أيام صباه، إلى كثرة الأتباع، إذ يكفيه أنه مقتنع بالفكرة مؤمن بها، وقد ضرب الساحلي له مثلا، حيث لم تضره عزلته، وظل عمره كله في بيته المهجور لا يلتفت إلى ما يقال عنه، ولا يدخل في خصومات أهل الحي، ولابد أنه الآن، وهو يعيش آخر العمر، يتمتع بلذة التأمل والخلوة. يذكر المستكاوي فكرة اقتحام بيت الساحلي، وكيف كان حريصا على ذلك من أجل إثبات بطولته، وبالأخص من أجل وضحى. الآن بعد

أن كبر ولم يعد للرجولة معنى سوى حماية الحي كما تقول مرشودة، وبعد أن تزوجت وضحى وصارت المرأة بالنسبة له النصف الهارب الذي لابد أنه سيكتمل به في يوم من الأيام، عليه أن يعمّق تأملاته في تضاريس الحي قبل أن ينفذ مشروع النفق ويغادر جميع الأهالي، كما عليه أن يستفيد من تجربة الساحلي العريقة، فقد جاء وقت اقتحام بيت الساحلي من الباب هذه المرة و ليس من فوق السور، فمن المؤكد أن الساحلي سيفرح كثيرا بهذه الزيارة، خصوصا أنها تشعره بالاطمئنان في آخر العمر، وهي فرصة لابد أن يستعجلها، فخروج الساحلي القليل من بيته ربما يشير إلى أنه مريض، ومرض مثل الساحلي من كبار السن قد يكون نذير موت قريب.

هجس المستكاوي بهذه الفكرة وما لبثت أن تحولت إلى عزيمة على أن يسرع في تنفيذها في سرية تامة، فدخول بيت الساحلي بالنسبة للمستكاوي تهمة قد تثير جدلا، ليس لأن الساحلي لا يزال غريبا في الحي، فالساحلي، بعد توافد الغرباء الجدد، صار مقبولا بدرجة كبيرة من أهل الحي وزالت تلك الاعتقادات والأساطير التي نسجت حوله، بيد أن زيارة المستكاوي هي التي ستبدو غريبة وغير مقبولة هذه المرة، وربما أعادت الفكرة القديمة للحي، أو ربما نبشت الأساطير السابقة، أو على أقل تقدير، أظهرت المستكاوي في موقف ريبة قد تجعله، هو الآخر أسطورة جديدة في الحي، خصوصا أن أمر عزلته شاع بين الصغار والكبار، كما أن وقوفه ضد محسن ورفاقه قد يعزز

فكرة انسلاخه من مجتمع الحي ودخوله بطوعه في دائرة الساحلي، وستكون زيارته للساحلي تأكيدا على أنه مؤمن بطريقته في التعامل مع أهل الحي.

فكّر المستكاوي في كل هذا وعزم أن يبدأ في تنفيذ فكرته في اليوم التالي، لكن أمرا بقي عالقا في ذهنه يتعلق بالساحلي نفسه. كيف يستطيع دخول عالمه والوصول إلى أسراره وهو لا يمنح جليسه أكثر من عبارات مقتضبة لا تفصح عن شيء؟ . هذا ما سيجعل مهمته صعبة بحيث يحتاج إلى زيارات متلاحقة لكسر هذا الحاجز، بيد أن الزيارات الكثيرة ستجعل أمر المستكاوي مريبا أكثر.

"حسنا، يبدو حمادي التكروني بوابة مناسبة للدخول إلى عالم الساحلي الغامض".

فكّر المستكاوي وهو يهجس بهذه العبارة في ما شاع قبل فترة عن الساحلي وعلاقته بحمادي، وما قيل من أن الساحلي يختلف كثيرا حين يجلس مع حمادي التكروني حتى في حديثه ، إذ يتجاوز الكلام المقتضب إلى الإسهاب في ذكريات الماضي وعلاقات الناس. قال المستكاوي بعد أن فكّر في كلّ هذا ، و بصوتٍ مسموع :

"سأحدثه عن مدهر الجبلي، وسأخبره عن تسلقه الجبال و قصصه مع نمور وادي نعمان، وأذكر له قصة سقوطه من الجبل وأثر ذلك في أن عاش أعزب حتى ألف العزلة بعد أن ترك تسلق الجبال الشاهقة واكتفى ببندقيته العتيقة التي لا تخطئ الطريدة".

و أردف بعد أن غاب في عمق حديثه مع نفسه :

"بالتأكيد سيفرح الساحلي بالحديث عن شخص مثل مدهر وسيساعد هذا على استدراجه إلى الحديث عن حمادي التكروني، وهنا سيكون من السهل فتح باب الحديث عن عالمه الخاص ومعرفة مدى جدوى عزلته، وما الذي أفاده منها طيلة كل هذا العمر؟"

لم يكد يصل المستكاوي عند هذا الحد من التفكير حتى شعر أنه، بالفعل، دخل عوالم سحرية:

"رأى الساحلي يسير في كهف مظلم يلوح في نهايته وميض نور، ورأى نفسه يسير خلف الساحلي داخل النفق حتى إذا أوشك على نهايته وقد بدأ النور يزداد إشعاعا أفاق على ضوء الصباح" .

حين استيقظ فرك عينيه، حاول أن يتذكَّر شيئا فلم يذكر سوى أنه قرر زيارة الساحلي في بيته لسؤاله عن قريته على الساحل هل، فعلا، كما يقول أهل الحي، تحولت بسبب الحكومة إلى مصنع لتحلية المياه وذهب أهلها إلى مناطق مختلفة؟

(٢٤)

لم يصدّق المستكاوي إطلاقا أنه، في هذه اللحظة، يتجول ببصره داخل بيت الساحلي. صندقة متواضعة داخل سور طالما حلم باقتحامه في طفولته، تستند الصندقة على الجبل. داخل الصندقة يوجد فانوس معلَّق عرف المستكاوي أنه من مقتنيات الماضي، ليس الفانوس فحسب، بل كل ما تحتوي عليه الصندقة، إذ تبدو أشبه بجمجمة شيخ كبير من الداخل. قدّر في نفسه أن هذه الأشياء العتيقة، من خرائط تفوح برائحة البن والهيل، وأخياش مثقوبة في طرف الصندقة، ليست إلا خزائن قديمة تخفي خلفها تركة الساحلي التي سيتركها لأهله من بعده، لكنه لم يهتم بأمرها كثيرا.

في الطرف المقابل للأخياش يوجد سرير تعلوه بطانة مهترئة تبرز من خلفها أسياخ السرير الداخلية ،في طرفه الأمامي يتدلَّى مذياع ذو جلد بني معلَّقٌ بحبلٍ سميك ، في حين تبدو الصندقة من داخلها كئيبة ،يصارع ظلمتها ضوء لمبة سهاري مثبتة في الأعلى، كانت هي الحبل الضئيل الذي امتد إلى ماضي الساحلي من الزمن الحاضر، ولعله يراها الحبل الضئيل الذي بقي له من مستقبل لم يتبق منه سوى خطوات قبل أن يصطدم بجبل الحي الضخم.

عالم الشيخوخة ظاهر على الأثاث البسيط الذي يحويه هذا المكان.هجس المستكاوي بهذا الشعور في ذات نفسه و خشي أن يجد صعوبة في فتح مغاليق هذا العالم ،بيد أنّه تذكّر أنّ الساحلي كان قد أنس إليه بسبب ما تعاهده به فترة مرضه القصير من خدمة استمرّت أسبوعا كاملا

في ذهاب و إياب كان يحضر له فيها بعض المواد الغذائية الخفيفة و العصائر ما جعله يشعر تجاهه بكثيرٍ من الامتنان ، و هو ما ساعده لاحقًا على طرق أبواب الأحاديث المغلقة ،و كان من ضمنها سرّ عزلته الاختياريّة في الحي .

قال المستكاوي للساحلي، حين ذكر له أن ما بينه و بين الموت كما بينه و بين هذا الجبل :

"لكن النفق سيعبر الجبل في المستقبل، هل سمعت بمشروع النفق القادم؟".

فأجاب بما يفيد أن التغيرات الجديدة لا تهم كبار السن، فأعمارهم لن تعبر النفق، وحين ذكر له انشغال الرجال، بما فيهم كبار السن، بمستقبل الحي، قال له:

"كبار السن يتحدثون عن مستقبل الحي لأنهم يحبون الحي الذي تأسس على أيديهم".

و على الفور تذكّر قريته الساحلية وكيف ضج الأهالي بعد أن قررت الحكومة نزع الملكيات وتعويض الجميع لضرورة استثمار المنطقة من أجل إقامة شركة أمريكية عملاقة لتحلية المياه. يذكر أن كثيرا من رجال القرية تجمعوا و ذهبوا إلى أمارة المنطقة محتجين، لكنهم رجعوا بشيكات التعويض غير ساخطين، وكان السبب الرئيسي في اختيار القرية مكانا للشركة أحد أبنائها ممن دخلوا سوق العقار مبكرا، وبتأثير هذه الأطماع أقنع اللجنة في

المنطقة أن قريتهم أنسب القرى لارتفاعها قليلا عن البحر مما يجعلها في مأمن من تقلبات الجو البحري وخطورة موجه في مستقبل الأيام، وأضاف:

" ... الدعبي في كل مكان، وما يواجهه حيُّكم واجهته كثير من الأحياء، فالمدينة لا ترحم أحدا، و هي كالطريق الإسفلتي تصبغ كل الأشياء بلونها دون تمييز".

حين سمع المستكاوي هذا الكلام قال مُؤيّدًا كلام الساحلي:

"أذكر أن أهل الحي فرحوا بالطريق الإسفلتي ورحبوا بشركة إصلاح الطرق ظنا منهم أنها جاءت لإصلاح أحوال أهل الحي، وما علموا أنه أول خطوة في الطريق إلى النفق الجبلي الذي سيشتتهم".

و حول الدعبي و أطماعه أردف قائلا :

"إن أهل الحي أوقفوا مشروعه بأمر من إمارة المنطقة حتى يحين تنفيذ مشروع النفق، والمهم عندهم ألا يسرق الحي أحد من أبنائه أو أبناء القبيلة، أما الحكومة فمواجهتها تعني مواجهة الدولة والخروج على النظام وهو ما لا يمكن في ظل القوة وما تمنحه الحكومة لأبنائها من توفير سبل العيش. كبار السن عندنا لا يفزعهم أكثر من الحكومة، ولهذا قصروا طموحاتهم في أبنائهم على الكليات الأمنية ليتخرج أبناء الحي ضباطا، وعلى أقل تقدير ليتخرجوا معلمين يعملون في الحكومة" .

واصل المستكاوي سرد اهتمامات الأهالي في الحي واستطاع أن يستثير ذاكرة الساحلي برغم أنه لم يأت على ذكر حمادي التكروني الذي توقع أنه

المفتاح الوحيد لعالم الساحلي، لكنه تأكد، بعد هذه التجربة، أن عالم كل إنسان لا يفتحه سوى التفاعل معه بحديث مماثل، فالناس يستدرجهم أن تتحدث عما يشابه أحوالهم، وقد جرّب بنفسه هذه الطريقة مع جابر، لكنه لم يعيها إلا هذه اللحظة، ففي تلك الفترة كان أصغر من فهم هذا الأمر، بيد أنه يذكر، الآن، كيف أن جابر الذي كان يحيط به صمت القرويين انطلق في حديث منهمر حين ذكر له المستكاوي سيرة شخص مثله في الحي، فصار كل ما التقيا يسأله عن أخباره برغم أنه لم يره قط، و ربما لا يعرف عنه إلا أنه يتيم مثله، و يعيش في ظروف مشابهة.

نظر المستكاوي إلى الأثاث القديم، فأراد أن يسأل الساحلي إن كان تاجرا في الحبوب أم أن هذه غنائم من معركة قديمة، وقبل أن يقولها مازحا تراجع، فالوقت لم يحن بعد لمداعبة غموض هذا الرجل، فانصرف إلى سؤاله عن مجيئه إلى مكة، هل كان قبل قرار الحكومة أم بعده؟

لم يتردد الساحلي في إيضاح أن مجيئه إلى مكة كان بعد القرار، ولكنه قبل التنفيذ، لأنه، كما يقول، خرج من قريته لأسباب لا تتعلق بالإزالة، فالقرية لم تعد صالحة للسكنى، بعد أن فقد أباه وزوجته، خصوصا أن الذين في سنه كلهم خرجوا مبكرين من القرية، أما هو فلم يكن أمامه خيار آخر سوى المجيء إلى مكة بعد أن ضاق المكان الخالي به. سأله المستكاوي:

" إذا كانت الخلوة هي التي أخرجتك من قريتك فما الذي يجعلك ترحب بها في هذا المكان؟".

ابتسم وقال، في إجابة مفاجئة :

"خلوة الغريب ليست كخلوة القريب. الغرباء يخلون بأنفسهم لأن المجتمع الذي حولهم غريب عليهم أيضا، وفي سن كسني من الأصلح للإنسان أن يعيش ما تبقى من عمره في مجتمع غريب، لئلا يصرفه المجتمع عن شيخوخته وما ينبغي عليه فعله في هذه السن".

حينها سأله المستكاوي :

"لكنك تبدو شيئا آخر مع حمادي التكروني" كان سؤال المستكاوي مفاجئا هو الآخر بالنسبة للساحلي، بيد أنه لم يسأله ما الذي أدراه عن ذلك؟بل أجاب على الفور:

"حمادي رجل كبير مثلي، وبيننا علاقة صداقة نشأت منذ كنت في سوق الأقمشة في حي الشبيكة بجوار الحرم المكي، وهو وإن كان من سكان جرول إلا أن أكثر جماعته في شارع المنصور، وكلهم يعانون من غربة داخل المجتمع المكي نفسه، فالأفارقة الذين سكنوا منذ زمن في مكة لم يستطيعوا الدخول في المجتمعات المكية المختلفة بسبب اللون، فكان من الطبيعي أن يتجمعوا في حي واحد ويكوّنوا مجتمعا خاصا بهم. حمادي التكروني لم يفضل هذا القرار فاختار لنفسه أن يبقى على طرف المجتمع المكي في خيمته، يراقب حركة الناس، ويتفاعل معهم بالتعليقات الساخرة والحكايات الموجعة أحيانا. هو مثلي تماما .. قذفه البحر إلى الساحل، ولهذا أحب الجلوس معه ليشاركني هذا الشعور في آخر العمر" .

و قبل أن يهمّ المستكاوي بالخروج ذكر أن الشائع عن أهل الساحل الطرب وحب الضجيج الاجتماعي، لكنه الآن غيّر نظرته عنهم،مشيرًا إلى أنّ هذا اللقاء جعله يفطن إلى أن خلف هذا الطرب صمتًا عميقًا، ما جعل الساحلي ينفي كون أهل الساحل كذلك، فهم، بالفعل، أهل غناء وطرب، غير أن هذا يظهر عليهم في سن الشباب، لكنهم حين يبلغون سن الشيخوخة يميلون إلى العزلة أكثر ويستعيرون من البحر صمته، بعد أن استعاروا ضجيجه في فترة من العمر. هنا، تحديدا، رأى المستكاوي أن يختم الحديث بدعابة جاءت في وقتها حين ذكر للساحلي أنه لم يستمتع في حياته بالحديث مع كبار السن إلا مرتين، مرة مع مرشودة أيام صباه و هو هارب من المدرسة، ومرة معه، في هذه الجلسة ،و قد جاءه هاربا من مجتمع الحي، ثم اقترح عليه أن يتزوج مرشودة لينجبا ولدا حكيما مثلهما.

ضحك الساحلي وعقّب على الاقتراح بأن مرشودة لا تصلح له لأن أسئلتها بعدد رؤوس أغنامها، ثم قال مستدركًا :

"مع هذا فأنا أفقد أغنامها ،إذ لم تعد تتسلل إلى البيت كما كانت من قبل".

فأخبره المستكاوي أنها باعت أغنامها وهي الآن تحرس الحي بحظائرها الخالية.

(٢٥)

برغم ما أحدثه مسلط من استغراب، بعد عودته، إلا أن قناعته انتقلت عدواها إلى بعض سكان الحي حين قرروا تدارك الأمر مثله؛ فشرعوا في توسيع أراضيهم وإحياء مواتها، أو إعادة ترميم الغرف القديمة التي كانوا قد تركوها مخازن لأسلحتهم العتيقة، فتحولت أطراف الحي إلى ساحات للتركتورات والبوكلينات وبدا مرآها وهي تأكل من جبال الحي المحيطة به وتزحف ببطء باتجاه الجبل الضخم أشبه بجيوش غازية أشرفت على الحي من جميع جهاته.

قالت مرشودة وهي تعلّق على ما يحدث أمام عينيها:

"حين تصل هذه الجرافات إلى الجبل الأشم ستكون نهاية الحي وشيكة".

و هو ما يبدو، بالفعل، إذ يعد الجبل الضخم، البارز للقادم من جهة الشمال الغربي، هو الأساس الجغرافي لخارطة الحي، وحين يصل الزحف البطيء إليه لن ينتظر أهالي الحي تنفيذ مشروع النفق، فبمجرد أن تتحول الجبال الأخرى إلى ساحات للمشاريع لن يكون بمقدور السكان البقاء في منازلهم حتى لو لم يتم تنفيذ المشروع المنتظر، وسيكون الحي، كما تقول مرشودة، "أشبه بإحدى أغنامها التي توشك على الموت فتسرع في تذكيتها لضمان صلاحية لحمها".

هذا ما يفعله الأهالي أمام عينيها، وهي لا تملك للدفاع عن الحي سوى الحظائر الخالية، أما ابنها سراج الذي لا يكاد يمر حدث بالحي دون أن يعلن

موقفه منه، فقد شرع في أحاديثه الساخرة التي يوزعها كما هو معتاد، مؤكدا أن الحي سيواجه اللصوص وحده، وسيبقى الجبل صامدا ولن تستطيع الحكومة اختراقه بنفقها فلن تستسلم له صخوره الصلبة بكل هذه السهولة التي استسلم بها الأهالي.

بعض رجال الحي، الذين لا يزال الأمل عالقا بأذهانهم، تزيدهم أحاديث سراج صلابة، فيشعرون، تحت تأثير الصدمة، أنه ملهم، يتحدث عن أشياء قد تقع، و رغبةً في إبقاء الأمل حيًّا في صدورهم يعزّزون اعتقادهم بأساطير كانوا قد حفظوها عن أمثال سراج ممن كانوا يسمعون حكاياتهم في قرى بعيدة وأزمنة سابقة، أو ممن قرؤوا عنهم في كتب التاريخ وغرائب الأخبار.

تزعم هذه الكتب أن بعض هؤلاء يملك حدسا يستطيع به استشراف الزمن القادم، وهي موهبة يصقلها التركيز الشديد في أحداث الواقع، وهؤلاء الذين يركّزون في الأحداث الجارية بحساسية عالية يكتشفون فيها ما هو مخبوء في الزمن القادم عن طريق الحدس، فيبدو للناس أنهم يقولون كلاما غريبا لا يُصَدَّق، ولهذا يظهر سراج ، في نظر المتفائلين بمستقبل الحي، من هذا النوع، وقد أثبتت الأيام الماضية صحة ذلك، فسراج نفسه هو من أخذ يردّد أن مسلط سيعود للحي وقد عاد، وهو من توقَّع أن خلف خيمة الساحلي أحداثا خفية، وبرغم أنه كان يقصد حكاية الساحلي وزوجته ونارهما التي يشعلانها خلف الجبل، على حد زعمه، إلا أن المتفائلين تأوَّلوا ذلك بقدوم الدعبي من وراء الجبل الجنوبي حتى يبدو لهم سراج صادقا في كل ما توقّعه.

سمع محسن هذه الاعتقادات في سراج فأسرع إلى توضيح الأمر للناس، وحذَّرهم من هذه الترهات التي تصيب الناس غالبا حين يشعرون أنهم في خطر :

"لا أحد يعلم الغيب إلا الله، ولا يستشرف الأزمنة القادمة إلا الأنبياء بوحي من الله، أما سراج فليس أكثر من مجنون يردّد ما يودُّ أن يحدث، ومن الطبيعي أن ينتمي للحي ويقول كلاما يوضّح موقفه مما حدث، وليس صحيحا أن النظر إلى الواقع بحساسية شديدة يكشف في داخلها أحداثا حتمية ستقع في المستقبل، وما يسمى حدسا وقراءة للواقع ليس أكثر من توقعات تصيب وتخطئ، لكن الناس ينخدعون بها حين تقع فيظنون أن من توقعها رآها قبل أن تحدث.

هذا كله تمويه وخداع، وقراء المستقبل مثل قراء الكف والضاربين على الرمل، لا فرق بينهم سوى أن أولئك يتسترون بما يسمى قراءة أحداث الواقع ثم إذا أصابت توقعاتهم صدفة زعموا أنهم بطريقتهم الخاصة استطاعوا كشف حجب الزمان".

استطاع محسن بعد كلمة ألقاها في مسجد الحي أن يسكت كثيرا ممن بدؤوا ينشرون عن سراج أخبارا تتعلق بذهابه خفية خارج الحي ولقاء امرأة عجوز تخبره بمستقبل النفق الجبلي، وهي التي تأمره بالتجوال في الحي ونشر الأخبار. كاد سراج أن يتحوَّل إلى كائن أسطوري في ظل ظروف الحي الراهنة

لولا أن محسن تدخل في الوقت المناسب وأبطل هذا الوهم قبل أن يكبر ويتسلل إلى حكايات النساء.

مع ذلك بقي نفر قليل في الحي ينفخون في حكاية المرأة العجوز التي تنبَّأت بمستقبل الحي قبل سنوات، وكانت قد حذَّرت الأهالي من حادثة كبيرة ستحدث، لكن أحدا لم يلتفت لما قالت، بسبب أن ظروف الزمن في ذلك الحين لم تكن تدعو إلى التصديق، فالحي، في تلك الفترة، كان مجرد شعب تنبت في أطرافه بعض البيوت التي يبدو أنها لن تتسع أكثر من ذلك، بسبب أنه حي مغلق من جميع الجهات، وهذه التضاريس تمنح الشعب قدرة على أن يتحصَّن من كل ما يهدّده من الخارج، لكن المرأة العجوز التي ذكرت لنساء الحي في ذلك الزمن أنَّ هذا الشعب سيتحول إلى ساحة لخصومات قد يسيل فيها الدم إلى الركب، اعتبرن هذا من تخرصات بائعات الأقمشة وأحاديثهن التي يردن بها جذب الزبائن من أجل ضمان البقاء مدة أطول في دائرة الاهتمام وبالتالي ضمان نفاد البضاعة مع الزمن.

أخذت حكاية العجوز تتحور وتتبدل من شخص إلى آخر حتى صارت دليلا على ما يجري في الحي، وبرغم أن سراج كان يمثّل الأمل الوحيد بتوقعاته عن مستقبل الحي وصمود الجبل إلا أن حكاية العجوز انقلبت إلى الضد فصارت تنذر الحي بما يهدد أمنه واستقراره، وصار المتفائلون يروون أخبارها بوجه غير الوجه الذي يرويه المتشائمون، ومع أن خبر العجوز كان مجرد ظن

تعلَّق به بعض المصدومين من الأحداث الراهنة إلا أنه اتسع وتمدَّد وأخذ صيغا مختلفة تصل إلى حد التناقض.

كل ذلك كان بسبب الأحداث المتسارعة التي تنمو في اطراد مستمر أمام أنظار الأهالي، ما جعلهم يتشبثون بكل خبر يتلمَّسون فيه وميض مخرج من النفق القادم.

جرَّافات الدعبي لم تحضر بعد، وقد أوقفت الحكومة مشروعه فبقيت آثار التسوير بالنصب البيضاء شاهدة على انسحابه فوق هضبة الجبل الجنوبي، وبرغم ذلك إلا أن الأهالي شغلوا عن نصرهم المؤقت بانتظار النفق الجبلي، فاستعانوا ببعض الوجهاء ممن لهم علاقة بموظفي الأمارة أو البلدية وطلبوا منهم التسلل إلى ملفات المشاريع للتأكد من صحة الخبر، أو حتى التأكد من مسار الطريق الدائري الجديد، هل سيعبر الحي؟ أم أنه سيتجاوزه إلى الحي المجاور؟.

أثار هذا التساؤل أحد سائقي الباصات، من أهل الحي، حين قال: "حيُّنا لا يخدم أي طريق عابر، فهو ينفذ إلى أحياء أكثر ضجيجا وتشابكا، وقد يكلِّف الدولة ميزانية ضخمة، بخلاف الحي المجاور الذي لا يحتاج فيه الطريق إلى أكثر من مسح أرضي للمنطقة دون الحاجة إلى اختراق جبل بحجم جبل الحي الضخم".

رد عليه آخر: "ميزانية الدولة ليست ميزانية باصات، فهي قادرة على إعادة بناء مكة كلها من جديد، والذين وقفوا على خطة الإعمار الجديدة

يقولون إنها لن تنتهي بشكلها الكامل إلا بعد عشر سنوات من الآن ما يعني أن المشروع الذي سيخترق جبل الحي جزء من مشروع كبير تعتزم الدولة تنفيذه في المستقبل البعيد".

بدا للجميع، بعد سماع الرأي الأخير، أن مكة كلها سيطالها التغيير في الزمن القادم، وهذا يعني أنها ستفقد كل ملامحها متمثلة في شعابها وأحيائها الشعبية وشوارعها المتشابكة، في الطريق إلى أن تصبح مدينة حديثة ذات كباري وجسور معلَّقة قد يجعل مكة القديمة مجرد أطلال وآثار مدفونة تحت المدينة الجديدة، لكنهم تساءلوا: كيف لمدينة مثل مكة أن تحتفظ بجاذبيتها ومكانتها حين تشبه المدن الأخرى؟ مكة مدينة مقدسة، والأشياء المقدسة لا يصح تغييرها حتى لا تفقد ملامحها التاريخية الأولى، فإذا كان أهالي الحي يشعرون ببالغ الأسى أثناء هدم منازلهم القديمة، فكيف سيشعر أهل مكة حين يكبر المشروع ويتسع ويرون مكة تدفن بكل أحيائها القديمة وشعابها تحت شبكة الطرق الحديثة؟.

في هذه اللحظة كان المستكاوي، كعادته، بعيدا عن النقاشات الساخنة حول مستقبل الحي، فقد أقام له منزلا خشبيا خلف منزلهم شبيه بالعريش. قام بتأثيثه بالأثاث القديم، حين أحضر فانوسا، ومذياعا، ومعاميل قهوة وشاي، مع دافور صغير للطبخ، وفرش أرضي من نوع الحنبل القديم، واضعا في طرف المنزل زيرا فخاريا للماء، بالإضافة إلى شتلات صغيرة من النعناع والريحان والجرجير، استعدادا لعمل مشتل كبير يتسع أكثر خلف منزلهم،

وذلك بعد أن قرر العودة إلى ذاكرة الحي الأولى وتأمل تضاريسه قبل أن يدهمه المشروع الجديد.

يؤكّد المستكاوي أن هذه الطريقة هي الأنسب في استثمار ما بقي من عمر الحي الموشك على الرحيل، وأن كثرة الحديث عن المشروع القادم يُعجّل به إضافة إلى أنه مضيعة للوقت، فالناس تحدثوا أم لم يتحدثوا لن يستطيعوا حماية الحي من الحكومة مهما قدموا من تبريرات.في الأخير لابد أن يستسلم الجميع للقرار، ولهذا ليس من العقل الانشغال بأحداث المستقبل عن رصد آخر ملامح الحي قبل الإزالة.

(٢٦)

نظر المستكاوي إلى مشتله فرأى أنه أمام مشروع صغير قد بدأ في النمو في الوقت الذي يتآكل فيه الحي من أطرافه. شعر أن عالمه القديم يؤذن بالانصرام فقرر أن يعتني بما تحت يديه، قال في نفسه:

"الزراعة هي الشيء الوحيد الذي يشعرك بنمو الفرح في داخلك".

تذكَّر، في هذه اللحظة، الفلاح الذي كان يرقبه في الهدا يوم كان يذهب مع أبيه. كان يراه كل صباح، حين يأتي في موعده، فينزل إلى مزرعته، وبرغم أن منظره وهو يحرث بمسحاته الأرض يشده إلى عمله، إلا أنه كان يتساءل إن كان هذا الحفر مجديا إلى الدرجة التي تجعله حريصا عليه في وقت محدَّد لا يتخلَّف عنه. كان يجد استغرابا خفيا في نفسه مبعثه ما يظهر له من بطء في الحرث قياسا بما تفعله الجرافات التي كان أبوه أحد سائقيها في تلك الفترة. بعد أن كبر، ووصل إلى هذه المرحلة من التجربة الماثلة أمامه، عرف أن الفرح ينمو ببطء ، وأن ما يجده الفلاح من سعادة وهو يحرث الأرض هو الذي يجعله طويل الصبر، كما عرف، وهو يتجوَّل ببصره في أطراف الحي أن ما تفعله الجرافات قد لا يستغرق وقتا زمنيا، كما تستغرقه الزراعة، لكن شتلة صغيرة تنمو ببطء يمكن أن تعوِّض في داخله عالم الحي الذي يتساقط أمامه. بتأثير من هذا الشعور قرَّر أن يواجه الجرافات بمسحاة صغيرة يحرث بها الأرض الصغيرة التي تتسع لأحلامه بين منزلهم و رابية الجبل.

بدأ مشتله ينمو ويتسع حتى صار ملتقى للخُلَّص من رفاقه الذين بقوا من الزمن القديم.

قال لهم، وهو يحتفي بشجرة لوز صغيرة للتو تفرع منها غصنان:

"شجرة اللوز هذه لمزهر ،رحمه الله .سأعتني بها أكثر، وعلى كل واحد منكم أن يتخيَّر من بين النباتات الموجودة ويرعاها كما يرعى صديقه. هذه الطريقة تعلمتها من فلاح قابلته في الهدا، كان يقول: الفلاح الذي لا يتعامل مع الشجرة كما يتعامل مع الإنسان لا تدوم زراعته".

شاع خبر مشتل المستكاوي في الحي، لكن أحدا لم يلق له بالا هذه المرة، بسبب أن أهالي الحي مشغولون بما يحدث حولهم، وقد استحوذ النفق على كل حديث.

المستكاوي ،أيضًا، لم يكن منصرفا إلى ما سيقال عنه، فليس هذا المشروع كاقتحام بيت الساحلي الذي كان يريد به إثبات رجولته، ولا كجبل كرا الذي حرص به على لفت أنظار الصبية عن غرفة مسلط.

جاء هذا المشروع الجديد مختلفا، في زمن مختلف، أراد به المستكاوي مواجهة الزحف الإسفلتي الذي بدت ملامحه في اتساع رقعة المخططات السكنية والمشاريع التطويرية للحكومة، وقد بدأت تشرف على الحي من كل الجهات، كما أراد به غرس ما يمكن غرسه في تراب الحي قبل أن تدفنه الجرافات.

جعل ينظر إلى شجرة اللوز، تلك التي سماها مزهر، وقرر بينه وبين نفسه أن يتحدث معها كما كان يتحدث مع مزهر: سيقول لها كل أسراره، وسيخبئ في أذنها الأحاديث الخاصة مع كل قطرة ماء تشربها. شعر، بعد هذا القرار، أن مزهر عاد، انتفض من قبره، أو أنه هو البذرة التي نمت حتى صارت شجرة اللوز، وستكبر حتى تصير شجرة باسقة ذات فروع متشابكة.

"نعم، بهذه الطريقة، أستطيع أن أصبر على هذا المشتل الصغير كما يصبر الفلاح على بستانه. مزهر سيجعلني أكثر حرصا على الموعد كل صباح، وسيكون موعدي معه موعد صديقين يتبادلان الأسرار".

قال ذلك ثم التفت إلى رفاقه مضيفا:

"هل تذكرون مشروع كرا؟ كان مزهر هو الذي شجَّعني ووقف معي حتى صار ملتقانا في ذلك الوقت، وقد جاء وقت رد الجميل له. سنلتقي هنا كل صباح، نقوم بدور الفلاحين، نحرث ونزرع ونقتسم العمل فيما بيننا. لا تلتفتوا إلى ما يقال، فالزراعة من عمل الكبار، ونحن اليوم رجال. صحيح أن الأرض صغيرة، لكن يكفي أننا نغرس الأمل في باطن الأرض وننتظر الفرح، أليس ذلك من وصية الرسول صلى الله عليه وسلم:" إذا قامت القيامة على أحدكم و بيده فسيلة فليغرسها ؟" .

شعر الجميع، بالفعل، أن الحي أوشكت قيامته، وعما قريب ستعلن الحكومة إخلاء البيوت وتهجير أهلها، وخير أثر يمكن أن يتركه سكان الحي هذا المشتل الصغير الذي سينمو حتى لو طمره تراب المشروع القادم، فالبذور

ستبقى في رحم الأرض ثم تنبت من جديد. مزهر سينمو بجوار التل المتكئ على رابية الجبل، في المكان نفسه الذي زعم نسوة الحي أن أحد الثعالب صاح وهو يشرف من التلّ حين سمعه مزهر قبل أن ينام فكان سببًا في موته، كما كانوا يعتقدون . ستنبت شجرة اللوز في هذا المكان لتثبت أنها أبقى من أصوات الثعالب والذئاب التي تحيط بالحي وتهدده هذه المرة بالزوال، تلك الثعالب التي عجز مسلط أن يخفي أصواتها، بل انضم إليها وتصالح معها من أجل أن يحفظ ممتلكاته ويستثمرها في تعويض الحكومة.

أعاد المستكاوي أنظار رفاقه إليه فبدؤوا يتوافدون على مشتله مؤمنين بفكرته، هذه المرة، وقد حملوها محمل الجد، في حين بدأ رفاق محسن ينسلون واحدا تلو الآخر من المجموعة. بدا لهم أنهم اعتزلوا الحي دون شعور منهم، وبرغم أنهم تركوا أثرا عميقا وغيَّروا مفاهيم خاطئة كانت قد تشبثت بذاكرة الحي زمنا طويلا، إلا أنهم بعد اكتمال سيطرتهم على الحي بدؤوا في التخلي عن طريقتهم وتغييرها بسبب الرفاق الجدد الذين اختلطوا بهم خارج الحي، ما جعل الأهالي يشعرون بفجوة كبيرة بين الطرفين.

في المقابل عزز هذا الشعور مكانة المستكاوي ورأوا انتماءه للحي، من خلال الزراعة، موقفا مشرفا، حين قال أحدهم:

"إن الدين ليس انفصالا عن الحي وإنما انتماء له، ومشاركة الأهالي في همومهم هي الامتحان الحقيقي لكل من يسكن الحي، أما هؤلاء الذين

يسورون ممتلكاتهم، ومثلهم الذين خرجوا قبل موعد الإخلاء، وكذلك هؤلاء الفتية الذين بنوا علاقات خارج الحي، كل هؤلاء لم يستفد منهم أحد".

رد آخر معلِّقًا على ما قيل :

"ليس بالضرورة أن يتشبث سكان الحي بترابه حتى يثبتوا ولاءهم له ؛فالانتماء الحقيقي للحي أن تحمل همومه و تقف مع أهله بأية طريقة، وكل من ترك أثرا هو من أبناء الحي المخلصين، فلا تقصروا الانتماء على حظائر مرشودة أو مشتل المستكاوي. العدو الحقيقي للحي هم أصحاب الأطماع الذين لفتوا نظر الحكومة إليه وتضامنوا مع تجار العقار على بيعه، أما الذين اضطرهم الزمن، أو التعليم، إلى الخروج فهم غير ملومين وإن كان الأفضل بقاءهم لتكثير سواد الأهالي".

قال ثالث معترضًا على ما سمع :

"المستكاوي هو الوحيد الذي أعلن انتماءه للحي بطريقة عملية، أما البقية فلم يفعلوا شيئا باستثناء مرشودة التي عملت ما في وسعها وإن كانت تدافع عن أراضيها الخاصة، لكنها ليست كمسلط ومن معه ممن قاموا بتضفير الجبل وتسوير الأراضي استعدادا لبيعها وجعلها ثغرة يدخل معها تجار العقار الجدد قبل أن تعلن الحكومة تنفيذ المشروع، وهذا كاف لإدخال الحي في المزاد العقاري وغلق كل الأبواب أمام الأهالي في محاولة إقناع الحكومة أن النفق لا يخدم الطريق العابر من جهة المدينة بسبب الأحياء المزدحمة خلف الجبل".

كان بعض سكان الحي قد تحوَّلوا، في فترة انتظار المشروع، إلى هواة هندسة تخطيطية بحثا عن مخرج للحي من المشروع الجديد باستثناء المستكاوي ومن انضم إليه في مجموعة المشتل، ففي الوقت الذي كان فيه أولئك يصعدون إلى قمة الجبل الضخم مصوبين نظرهم باتجاه طريق المدينة ورصد حركة الطريق الساحلي القادم من الشمال، كان هؤلاء يغرسون فسائل النخل واللوز وشتلات مختلفة من الخضار، ما جعل أهل الحي، ممن قرر مواجهة المشروع، ينقسمون إلى: فلاحين جدد، ومهندسين هواة. يسعى الفلاحون إلى ترك أثرهم قبل ساعة الإخلاء موقنين أن ما قررته الحكومة وتمت المصادقة عليه من قبل الجهات العليا لن يثنيه قرار الأهالي، في حين يسعى المهندسون الهواة إلى تقديم مشروع بديل يضمن للحكومة استمرارها في المشروع وللحي بقاءه على خارطة مكة الجديدة.

استطاع المستكاوي أن يجلب إلى مشتله أكثر رفاق الزمن القديم بما يشيعه الرفاق عنه من حكايات جديدة تتعلق بالطبيعة والمناخ الجغرافي وأوقات الزرع، ساعدته في ذلك موهبته القديمة التي بدأ في تنميتها منذ أن قرر مزاولة مهنة الفلاحة، إضافة إلى تجربته منذ طفولته مع جابر التي أفاد منها مما كان يقوله عن الفلاحين في مدينة الطائف وكيف يستثمرون الأرض على حساب مساكنهم، لأنهم يرون زراعة المكان هو إحياءه الحقيقي، وليس البناء سوى حجر مؤقت يزول بزوال أهله أو يندثر كما هو حال الحصون

الحجرية التي تبدو في أودية الطائف شاهدة على الخراب. يذكر أن جابر، نقل له، ما سمعه من أبيه حين سأله:

"لماذا الفلاحون في مدينة الطائف يهتمون بالمزراع أكثر من بناء الحصون؟".

و من تلك اللحظة وبذرة ذلك الحديث تنمو في خفاء داخل أعماق المستكاوي حتى حان وقت ظهورها في هذا المشتل الذي بدأ يتسع ويقصده الرفاق.

(٢٧)

لا شيء يقلق المستكاوي أكثر من هذا الزحف المتسارع الذي يفنى فيه عمر الحي تحت وطأة ضربات البوكلينات وهي تنهش في جسد الجبل الجنوبي في الطريق إلى صدر الجبل الضخم، جبل براك كما يسميه أهل الحي.

في مقابل ذلك لا شيء ينمو بسرعة في مشتله سوى بذور الجرجير التي لا يطول عمرها كثيرا ،إما بسبب الحصاد السريع أو الذبول الذي يقضي على بهجتها.

يستحث المستكاوي رفاقه على العمل والصبر، برغم أنه في قرارة نفسه يشعر بيأس، فالطَّرَقَاتُ التي ينبعث صداها من بين جبال الحي كأنما هي استغاثة طلب للنجدة في الوقت الذي ليس بوسع أحد إيقاف هذه المعدات عن الزحف، بعد أن استطاع الدعبي إخراج تصريح ببدء العمل في تلك المنطقة، وهي نفس المنطقة المنبسطة التي أقام فيها المستكاوي مشروع جبل كرا. لابد أن الصخرة المجوفة في تلك المنطقة قد قضت نحبها، تلك التي كان المستكاوي يستظل بها يوم كانت مركز قيادته للصبية، أو حتى وقت هروبه من المدرسة حين يقضي النهار فيها ريثما ينصرف الطلاب.

هي إذن المعْلَم الأول من معالم الطفولة يلقى حتفه أمام زحف خارطة مكة الجديدة. ما يوجع المستكاوي أكثر هو أن المعركة الآن تدور رحاها في هذه المنطقة التي شهدت أهم مشروع طفولي قام به، وهو المكان الأكثر

احتفاظا بالذكريات، تأتي في أولها ذكريات مزهر، ما يعني أن أول ما طمس من الحي طفولته ومعالمها التي كان من الممكن أن تقاوم مدة أطول لولا أطماع الدعبي التوسعية.

شعر المستكاوي بالغيظ يملأ صدره على الدعبي، فتذكَّر، في هذه اللحظة، ما كانت تفعله شركة المواصلات في جبل كرا، وكيف أن المشروع بدأ بهدف تذليل الجبل للصعود إلى سفحه الأخضر، وأن الأمر ليس أكثر من طريق متعرج يلتف على جسد الجبل حتى يبلغ قمته ثم يتوقف عند حدود المساحات الخضراء من شجر العرعر؟، بيد أن الذي حدث، وهو ما أكدته آخر زيارة له لمنطقة الهدا، كان زحفا توسعيا لأطماع التجار الذين غيَّروا ملامح الهدا بالكلية، فلم يعد لشجر العرعر وجود، ولا لتلك المساحات الترابية التي يقضي فيها المتنزهون أوقاتهم، حتى تلك البساتين المسورة على شجر الرمان والتين استحالت إلى مجمعات سكنية لفلل وشقق مفروشة، وهذا، بالضبط، ما يفكر فيه الدعبي، وما يفكر فيه المتنفذون في الحكومة، فالمسألة ليست طريقا عابرا، برغم ما يؤكده بعض رجال الحي الذين قالوا إنهم رأوا بأنفسهم الخارطة الهندسية لمكة الجديدة، فالطريق الساحلي، يمتد بمحاذاة البحر، متفرعا عن طريق ينبع الجديد، عابرا جدة بمحاذاة طريق المدينة، متجاوزا عسفان عن شماله، ومتخطيا الجموم، متجها صوب مكة باتجاه جبل الحي الضخم، وهو نقطة النفق، في الطريق إلى الحرم، باتجاه الطائف.

أكَّد رجال الحي، أيضا، أنه في الإمكان أن ينحرف الطريق الساحلي قليلا عن الحي، فيما لو تم إقناع المهندس المشرف على المشروع في الأمارة بعدم جدوى النفاذ من جبل الحي، إذ يمكن الاستعاضة عن ذلك بجسر يعبر الحي من الجهة الجنوبية تاركا الجبل على يساره، وهو ما فعله فريق المهندسون الهواة حين قدموا رسما تخطيطيا مقترحا مرفقا بطلب مُوقَّع بأسماء الأهالي، وهم الآن في انتظار الرد على الطلب الذي قُدِّم قبل أيام قليلة.

لا بد أن الأمارة ستدرس المقترح بتأنٍّ على طاولة النقاش، كما يقول أكثر المتفائلين في الحي، خصوصا أن المقترح مدعوم بشفاعات من رجال الأعمال وبعض الوجهاء المكيين، خلافا للبعض ممن استبعد أن يجد المقترح اهتماما أو حتى يجد من يطَّلع عليه؛ فالموظفون، من أهالي الحي، يذكرون ما تجده المعاملات من إهمال في كل دائرة حكومية، ما دعا أحدهم أن يعلق:

– لو يعلم البدوي ما مصير الخطاب الذي يدفع ثمن كتابته أو البرقية التي يتعنى في إرسالها لم يتعب نفسه في مراجعة الدوائر الحكومية.

رد عليه آخر:

– لكن هذا مشروع مقترح من قبل الأهالي وليس طلبًا فرديا.

– وليكن، فالدولة لا تفرِّق بين الأفراد والجماعات حين يتعلق الأمر بمشروع تطويري للمدينة.

ظل أهل الحي زمنا لا يشغلهم غير الساحلي، الرجل الغامض، الذي يعبر الحي بصمت، لكن أحدا منهم لم يَدُرْ في خلده أن الأمر سيختلف

بالكلية حين ينصرفون عنه إلى الطريق العابر، ولعله من باب المصادفة أن يحمل نفس الاسم وربما يعبر العبور نفسه، لكنه ، هذه المرة، ليس عبورا صامتا، وإنما عبور سيلتهم الحي بأكمله.

قال أحد رجال الحي ، مشيرًا إلى تلك الأوهام التي كان يثيرها الأهالي حول الساحلي :

– البلاء موكَّلٌ بالمنطق، وقد أخبركم محسن من قبل أن الأحداث السيئة قد تحدث بسبب ظنون أصحابها، فالساحلي الذي تربصتم به وظننتم أنه يخطط للسيطرة على الحي جاءكم في وجه آخر.

رد آخر مؤكّدًا نظريّة الاستشراف التي تتعلّق بحكايات سراج:

– سراج توقَّع ذلك، حين ذكر أن الساحلي سيسرق الجبل، وقد أخبرناكم أن توقعاته دائما تصيب، لكنكم كنتم تحملونها على ظاهرها. فمن الواضح أنّ سراج لم يكن يقصد غير الطريق، غير أنا لم نفهم ما يقصد إلا هذه اللحظة.

علق ثالث في محاولة أخيرة لنسف ما قيل ، و في الوقت نفسه متضامنًا مع حركة التطوير الجديدة :

– لا محسن، ولا سراج ، ولا أحد توقَّع ما حدث. أنتم تصنعون من أوهامكم حقائق. ما يحدث في حينا يحدث في كل حي، وهذا المشروع التطويري طبيعة الحياة، هل تريدون الدولة تقف عند رغباتكم فيما العالم يتسع من حولها؟ الأمر، في رأيي، طبيعي، ولا علاقة له بالساحلي.

– ربما كانت هذه مصادفة، لكن هذه المصادفات لا ينبغي النظر إليها نظرة عابرة. كل شيء يحدث من حولنا قد يكون له علاقة بما سيحدث في المستقبل إذا أحسنَّا فهمه.

– هذا كلام باطل، ويفضي إلى الطيرة، وبسببه قد يقع الناس تحت أوهام الحكايات والأساطير، فليس من المعقول أن نتحسَّس كل حدث، أو نفسّر ما يدور حولنا بأنه بذرة مخبوءة للمستقبل. لو تعاملنا مع الأحداث بهذه الطريقة ستتعطل حياتنا ونركن إلى ما يقوله أمثال سراج، أو غيره من المشعوذين والسحرة.

– نعم، ديننا علمنا أن كل شيء بقضاء وقدر، فلا تنسبوا ما يحدث لهذه التكهنات.

في الجهة المقابلة لهذا النقاش الساخن كان المستكاوي يعتني في مشتله ببعض النباتات الجديدة التي للتو شقت الأرض معلنة عن ميلاد جديد، حين قال لرفاقه:

"حين تصبح هذه النباتات أشجارا باسقة قد تلامس بأغصانها جسر الطريق الساحلي العابر من أعلى، وليس يعنيني من كل هذا المشتل الصغير سوى أن يبقى أثرا يذكِّر العابرين بحينا القديم. هل تصدقون لو قلت لكم: إن غنيم الساحلي، رحمه الله، كان يعلم استنادًا إلى تلك اللحظة التي تم فيها تهجير قريتهم على الساحل في ينبع من أجل إقامة شركة للتحلية، كان يعلم أن حدثا مشابها سيمر بالحي، وتوقع أن يمر أهالي الحي بمثل ما مر به سكان

قريته؟ حدثني، قبيل وفاته بأشهر، أن القرية الساحلية التي كان يسكنها لم تستطع مقاومة قرار الحكومة النافذ برغم محاولاتهم المستميتة حتى من جهة شيخ القبيلة، وفي الأخير استسلموا للقرار ورضوا بالتعويض متفرقين في أماكن شتى من ينبع ،ينتظرون الإسكان الجديد الذي وعدت به الحكومة.

ثم علّق متسائلا :

" و لا أدري إن كانوا إلى هذه اللحظة لم يظفروا به؟ أم أنهم ظفروا به في الأيام الأخيرة من حياة الساحلي؟".

كان المستكاوي يتحدث عن الساحلي بشيء من الحزن، مؤكدا أنه عَبَرَ الحي دون أن يشعر به أحد، ولولا بعض تلك الجلسات القصيرة التي يراه فيها مع كبار السن، أو تلك الأحاديث التي ظفر بها منه آخر العمر لما أحس أحد بموته، بل حتى حدث موته كان صامتا، إذ لم يكلِّف أحدا أكثر من رؤية سيارة إسعافٍ خرجت به من الحي دون أن تعيده إليه، ولولا أن الطريق الجديد الذي سيخترق الجبل يحمل اسمه مصادفةً لسقط من ذاكرة الحي.

(٢٨)

حظائر مرشودة الخالية على مقربة من سفح الجبل الجنوبي تبدو للناظر إليها مكانا تركه أهله منذ زمن، فروث الأغنام الذي يبس حتى لم يعد له سوى رائحة تومض مع كل هبة ريح عابرة يشهد بذلك، ومرشودة نفسها بقيت ما يقارب الشهرين، منذ فقدت ذاكرتها، وهي تحلب أغناما غير موجودة، حين تصر أن الأخشاب التي تشتكي زحف النمل هي قوائم الغنم، ما جعلها تستمر كل صباح تحلب قوائم الخشب المتآكل، حتى قام نسوة الحي بإصلاح شأنها وإغلاق منافذ البيت عليها لتبقى وحدها تتجول في فنائه الصغير تكنس ما تسفيه الريح من مخلفات أو ما تتركه الدواجن القليلة من بقايا متناثرة، وبالرغم من أنها فقدت ذاكرتها إلا أن ذلك جعلها توغل في الماضي أكثر، حين صارت تستدعي أحداث الديرة قبل أن تسكن الحي، في أخلاط من الأحاديث الممزقة، والحكايات غير المرتبة، مع شيء يسير من أحداث الحي خصوصا ما يتعلق بالدعبي الذي يبدو أنه آخر ما علق بذاكرتها من الزمن الحاضر، وإن كانت لا تبين عن سبب ذكره في أحداثها المتخيلة :

"مرشد أعاد الغنم التي سرقها اللصوص فاعترضته قافلة الأتراك وهي في طريقها إلى الحج فهرب إلى قمة جبل ورقان، وهناك نهشته حية تركته نهبا للذئاب العاوية، وبراك باع خشب العسل الذي تعب في إصلاحه للرشايدة

ونسي أن يقبض الثمن، ومسعدة باعت حظيرتها وتزوجت، بعد وفاة زوجها، تاجرا من أهل المدينة".

الذين يعرفون بعض هذه الأحداث يعرفون أنها تستند إلى واقع لم يبق منه سوى خطوط خفية في ذاكرة مرشودة تنسلُّ منه بعض الخيوط التي تتشابك في أحداث مخلطة تبدو لسامعها أنه هذيان كبر السن، وهي بالفعل كذلك، فمرشودة منذ أن أشرف الدعبي على سفح الجبل الجنوبي وهي تفقد كل يوم جزءا يسيرا من صحتها وعقلها إلى أن دخلت مرحلة الخرف الذي أخرجها من عوالم الحي إلى عوالم البادية أيام الرحيل والظعن، فشرعت تردد ما لا يعرفه سوى كبار السن في الحي، وهم، بطبيعة الحال، قلة ولا يصل إليهم من أخبارها التي تقصها شيء، مع أنها تقول أحيانا ما وقع فعلا دون تخليط ولا تبديل. من ذلك ما ترويه من أخبار قوافل الأتراك التي تعبرهم يوم كانوا ينصبون بيوت الشعر على طريق القوافل رغبة في الحظوة بشيء من أكياس الحنطة التي يوزعها الأتراك على أهل البادية في تلك الفترة. كان رجال الحي يتسامرون، أحيانا، على هذه القصص الماضية، ويروون للصبية أطرافا منها بمبالغات حينا وبغير مبالغات حينا آخر، وكان أكثر ما يروون قصصهم مع الأتراك العابرين في قوافلهم، وجُلُّها، كما يصوّرون، بطولات خارقة للأجداد يظهر فيها الأتراك في مواقف الانسحاب أو المحاصرين بوابل من الرصاص، خلافا لما ترويه مرشودة في خريف العمر، إذ تؤكد أن قوافل الأتراك تمر في هيبة وجلال، وأنها توزع الكثير من الأرزاق عليهم ، كما تروي قبل خرفها

الشيء الكثير عن المزيونات التركيات اللائي كتب في عيونهن شعراء البادية أجمل القصائد، غير أنها بعد الخرف لم تعد تروي سوى قصص القوافل العابرة التي يتتبعها أهل البادية للظفر بشيء مما تحمله من الأرزاق، وحين يصل إلى أحد من كبار السن شيء من هذه الأخبار يؤكد أن الخرف أدرك مرشودة فلم تعد تعي من الماضي شيئا، سائلين الله لها حسن الخاتمة.

في الجهة الشرقية من الجبل لا يزال مسلط يتمتع بكامل قواه، وبرغم أنه لا يأتي إلى متحفه الصناعي إلا آخر الأسبوع من أجل الاطمئنان على أن كل شيء على ما يرام إلا أنه يملأ الحي صخبا في هذا اليوم الاستثنائي، حين يجتمع عليه صبية الحي فيقوم بإعداد مسابقة في الرمي، ما يجعل الحي، في هذا اليوم، يتحول إلى ما يشبه ساحة معركة حربية، أو ساحة احتفال بالرصاص، دون أن يجد اعتراضا من الأهالي الذين يرسلون أبناءهم لتعلم الرماية على يد مسلط معتبرين هذا من الإعداد المهم لهم في مستقبل العمر، حتى صار آخر الأسبوع موعدا لهذا المهرجان.

يحدث، أحيانا، أن يقوم مسلط نفسه بممارسة هوايته القديمة حين يقتنص الكلاب العابرة، ما يجعل البعض يحتج على فعله بحجة أن صيد الكلاب لم يكن، في تلك الفترة، إلا ضرورة اقتضتها حراسة الأغنام التي كانت من أنفس أموال الأهالي، أما، الآن، فلا مبرر لهذا الفعل، بل، على العكس، فهو يربي الصبية على إيذاء الحيوانات البريئة.

بالطبع مسلط لا يهمه مثل هذا الشعور، ولم يكن فيما مضى، يقصد حماية الحي بقدر ما يقصد ممارسة هوايته والاستمتاع بمنظر الكلاب وهي تعوي وتتلوى من ألم الرصاص النافذ إلى أحشائها، وقد كان بعض الأهالي يمتنّون له لشعورهم أنه كان بمثابة الحامي الذي يبذل كل طاقاته من أجل الحي، لكنهم، منذ أن خرج حتى عاد ،عرفوا أن ما يفعله سابقًا إنما كان ناتجا عن رغبة ذاتية لا علاقة لها بخدمة الناس ولا بحماية الحي، وقد قام محسن بتثقيف أهل الحي في مواعظه وذكر ضرورة أن يستحضر كل إنسان النية الصالحة عندما يعمل ؛لأن هذا هو الفارق الدقيق والمهم بين من يعمل لمجرد الرغبة في العمل ومن يعمل وفي نيته التقرب إلى الله بخدمة الناس.

كان محسن قد نوّه على ذلك كثيرا دون أن يذكر لهم نماذج شخصية، وكان البعض يختلف معه من جهة أن صاحب العمل مأجور على عمله، وليس بالضرورة أن تحضر النية في ذهنه، بشرط ألا ينوي به مصلحة ذاتية أو دنيوية خالصة، وهي المسألة التي يختلف فيها محسن ورفاقه بصرف النظر عما يقوم به مسلط من أعمال مفيدة القصد منها فقط ممارسة هوايته والاستمتاع بالعمل من أجل العمل.

محسن ورفاقه، على العكس تماما من المستكاوي ومسلط، صاروا يمارسون أنشطتهم خارج الحي ولم يعد لهم وجود يذكر سوى ما يتعلق ببعض المناسبات الاجتماعية التي يحضرون فيها من خلال بعض البرامج الدعوية وإلقاء الكلمات العابرة، وقد لاقت هذه البرامج تحفظا من بعض كبار السن

الذين احتجوا عليها بسبب أنها تفوّتهم فرصة الحديث ومعرفة أخبار الجيران، أو حتى معرفة آخر أخبار النفق الجبلي، وقد استمر الاعتراض على هذه البرامج حتى اختفت من مناسبات الحي ومعها اختفى محسن و رفاقه.

(٢٩)

في مكتب الأمارة حيث يتبادل أعضاء اللجنة الرؤى المختلفة حول جدوى مشروع الطريق الدائري الجديد، القادم من الساحل، تظهر خارطة مكة الجديدة في شاشة عرض كبيرة، فيما المؤشر الأخضر يتنقل من مكان إلى مكان بيد المشرف الهندسي الذي يعرض فكرة المشروع كاملة على أعضاء اللجنة الاستشارية.

حين وضع المؤشر على الطريق الساحلي الممتد شرع في الحديث:

"من هنا يبدأ الطريق الساحلي مكوّنًا، مع شبكة طرق متعددة تعبر مكة القديمة من أعلى، رؤية المشروع كاملة.

يأتي الطريق الساحلي كأهم هذه الطرق الجديدة، فهو يخدم الحجاج القادمين من المدينة، ومن مطار جدة، وسيتمكّن الحجاج من عبور مكة دون الحاجة إلى خوض ازدحام المدينة في الأسفل. سيكون هذا الطريق معبرا يسيرا إلى الحرم من خلال ذراع يصب في المنطقة المركزية، وسيواصل الطريق عبوره حتى يلتحم بطريق الطائف/كرا".

بعد أن يضع المؤشر على الأحياء العشوائية يضيف قائلا:

"سيواجه الطريق عقبات جبلية تستند عليها أحياء مكة القديمة أبرزها جبل حي رضوان، وهو صالح، بسبب ضخامته، لتنفيذ مشروع نفق جبلي ينفذ منه الطريق إلى ما وراءه. هناك أيضا منطقة مزدحمة من الأحياء

العشوائية التي تحتاج إلى إزالة. في اعتقادي أن إزالة البيوت وتعويض أصحابها بأراض جديدة في أطراف مكة سيحقق نقلة نوعية فيما يخص إعمار مكة من أطرافها ونقل ضجيج السكان إلى تلك المناطق الممتدة خارج الحرم، وعلى هذا تقوم فكرة المشروع المستقبلية: لابد من إخلاء مكة من السكان وجعلها مدينة متحركة، فمكة تقوم فكرتها من الأساس على الحركة، الطواف، أداء شعائر الحج، ثم توديع البيت، ويمكن لسكان مكة أن ينتقلوا إلى الأطراف لتتمكن الدولة من خدمة الحجاج والمعتمرين، وعلى هذا الأساس تم رسم خارطة مكة الجديدة".

حين فرغ المشرف الهندسي بدأ النقاش بين أعضاء اللجنة الذين أكّدوا أن فكرة المشروع، رغم أنها فكرة تطويرية جديدة، إلا أنها تعيد مكة إلى سابق عهدها حين تكون مدينة مقدسة، غير أن هذا الرأي لاقى بعض الامتعاض من أحد الأعضاء حين قاطع الصوت الجماعي بصراحة تمنى أن تتسع لها الصدور:

"لا غبار على فكرة إخلاء مكة من أجل تطهيرها من كل ما علق بها من ضجيج المدينة وإخراج كل ما يمكن أن يتعارض مع قداستها، لكن هذا يتطلب مشروعا آخر غير إنشاء الجسور وإزالة المساكن القديمة. بصراحة متناهية، هو يتطلب إخلاء مكة من الأبراج السكنية التي تدرُّ على المستثمرين الأرباح. أتصوَّر أن الاكتفاء بتهجير سكان الأحياء الشعبية إلى خارج مكة واستثمار أراضيهم في إقامة الطرق والأبراج هو الخلل الكبير في

هذا المشروع، وهو موضع نقد الأهالي الذين يرون التعويض غير كاف إلا إذا كان في نية الحكومة استثمار هذه الأراضي للمصالح العامة لا الخاصة".

قاطعه عضو آخر في موقف تبريريّ :

" لو أن الحكومة انتظرت موافقة جميع السكان ما خرج أحد من مكانه. مثل هذه المشروعات التطويرية لابد أن تواجه بالرفض، لكن فور الشروع فيها وتنفيذها يبدأ السكان في مباشرة الحلول الأخرى، فأرى ألا نلتفت للمطالب ولا للشكاوى التي ترفض المشروع من أساسه. إن كان لديكم اقتراحات على المشروع تفضلوا".

بعد أن وصل النقاش إلى هذا الحد لفت أحد الأعضاء إلى مقترح تعديل على المشروع، قائلا:

" بين يدي رؤية أخرى، يمكن عدّها تعديلا على المشروع، وهي مقدمة من أهالي حي الرضوان الذين يسكنون تحت الجبل المعني بالنفق. ملخّص الرؤية أن تنفيذ النفق الجبلي قد يكلف الدولة كثيرا بسبب ما يتبع ذلك من إزالة لعدد من الأحياء، فلو أن اللجنة رأت إلغاء فكرة النفق والاستعاضة عنه بجسر يعبر عن يمين الجبل أو يساره، مؤكدا هذا الاقتراح على مراعاة طبيعة مكة الجغرافية التي أهم ما فيها جبالها وشعابها، وفي حال الاستكثار من الأنفاق الجبلية أو تسوية الجبال التي هي من أبرز معالم مكة، ستفقد مكة الشيء الكثير من جلالها وطبيعتها التكوينية، ولن يكون المشروع تطويريا بقدر ما سيكون مسحا لأهم ما يميز مكة".

بدت فكرة التعديل على المشروع مقنعة نوعا ما، وهو ما انعكس على نقاش اللجنة حين انقسموا إلى فريقين، إذ يرى المشرف الهندسي ومن يميل إلى رأيه أن هذه ليست أكثر من حيلة يبرر بها السكان بقاءهم في أحيائهم الشعبية التي لم تعد متناسبة مع خارطة مكة الجديدة، في حين انحاز عدد من أعضاء اللجنة الاستشارية إلى فكرة التعديل والاقتصار على تنفيذ الجسور بدون أنفاق جبلية، و قد بدا لهم أن أهم ما في هذا الاقتراح التعديلي التنويه إلى الخاصية الطبوغرافية لمكة، فالجبال منذ فجر التاريخ و هي تحيط بمكة من جميع جهاتها، ولو لم تكن ذات أهمية بالنسبة لطبيعتها لما كانت بهذا الحضور اللافت. إن المتتبع لتاريخ مكة يجد الجبال حاضرة حتى في الأحداث الكبرى، فغار حراء هو أول جبل استقبل صوت السماء، وجبل ثور كان حاضنا للنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، وجبلا الصفا والمروة لهما حضورهما، وكذلك بقية جبال مكة، سواء في داخل الحرم أو خارجه كجبل عرفات، ومن هنا يبدو المقترح جيدا. "لا أعتقد"، يقول أحد الأعضاء المنحازين لاقتراح التعديل، "أن تحويل مكة إلى مدينة هندسية كجدة أو الرياض سيكون في صالح طبيعتها الجغرافية، ولهذا فالاقتصار على الجسور في مرحلة المشروع الأولى أولى من تنفيذ فكرة النفق التي تحتاج إلى دراسة معمقة يتم فيها استشارة خبراء جيولوجيين يقررون أبعاد المشروع وآثاره المستقبلية، فبناء المدن الحديثة لا يعني التخلي عن الطبيعة التكوينية لهذه المدن".

انتهى النقاش ولما تصل اللجنة إلى قرار نهائي، وفور فراغ اللجنة من أعمالها تم تسجيل اقتراح أهالي الرضوان ووضعه قيد الدراسة، وقد بُلِّغ به رئيس قسم التخطيط العمراني في الأمارة الذي بدوره حفظ القيد في سجل المشروعات المقترحة تحت الدراسة.

بلغ أهالي الحي أن مشروع النفق الجبلي تم تأجيله إلى حين دراسة جدواه، كما بلغهم طلب اللجنة المهتمة بأمر النفق دراسة المقترح، ما جعل المهندسون الهواة يشعرون بالزهو ولذة الانتصار، و برغم أن الأمر لم يحسم بعد، ولا يزال أمر المشروع غامضا إلا أن مجرد التأجيل بدا لأهل الحي أشبه بولادة جديدة للحي، أو إعطاء الحي فسحة من العمر المديد.

المستكاوي لم يكذب خبرا، فأخذ يعلن فرحه بطريقته الخاصة حين دعا أصدقاء المشتل إلى وليمة احتفلوا فيها على مقربة من الجبل الشمالي، حيث يقع مشتله، وبعد تناول الغداء قاموا معًا بصعود الجبل بحجة الوقوف على تخطيط المشروع ومعرفة ما طرأ من تعديل. كانت رحلة جبلية تزامنت مع دخول الربيع حيث الأجواء العليلة، ووفرة الحشائش والنباتات الطبيعية. سارت الرحلة في حركة دائرية حول الحي، تخطو على متون الجبال.

في الطريق كان المستكاوي يرصد آثار الطفولة في تلك المباني الحجرية الصغيرة، ويتوقف عند كل نبتة، معرفا بطبيعتها واستعمالها، موضحا أن جبال مكة ثروة طبيعية، ودكها أو تحويلها إلى مخططات سكنية إهدار لهذه الثروة،

وحين وصل إلى نهاية الرحلة من طرف الجبل الجنوبي أشار إلى المساحة البيضاء التي أعدها الدعبي لبلكات المخطط الجديد قائلا:

"في هذا المكان، تحديدا، كانت توجد صخرة مجوفة نستظل بها أثناء لعبنا على سفح الجبل. أذكر أني حين أهرب من المدرسة أصعد إلى هنا من الحي المجاور كي لا يراني أحد فأمكث إلى الظهر".

يشير، بعد ذلك، إلى ناحية الشعب المنحدر من الجبل إلى الحي:

" هنا كانت حظائر مرشودة، وهذه الأخشاب التالفة في الشعب بعض ما بقي منها".

ثم يشير إلى حرف الجبل المقوس فوق صخرة حيث تقف معدات الدعبي:

"كنا نسمّى هذا المكان ملف القدر ، و كنا نفرح حين يسقط أحد منا عند هذا المنعطف لنشعر أنه منعطف حقيقي، شبيه بملف القدر في (وادي فخ)، ومنعطفات كرا في طلعة الهدا. كانت حياتنا كلها انعكاسا لحياة الكبار، حتى الطبيعة الجبلية التي نختفي بها في هذا الحي هي امتداد لما نراه خارج الحي، ولهذا السبب كان أكثر الرفاق لا يحب مغادرة حينا إلى الأحياء المجاورة، أو إلى مدينة غير مكة ذات الطبيعة الجبلية المختلفة عن كل جبال الدنيا".

(٣٠)

في حي التشاليح كانت المحلات قد بدأت تتناقص بسبب نقل الحي الصناعي إلى خارج مكة، وقد ظهر أثر ذلك على مرتادي الحي من أصحاب السيارات والونشات، فأبو نقطة كان قد حل شراكته مع مسلط وانتقل إلى حي التهريب، غرب مكة، حيث عدد من محلات السيارات المستعملة، إضافة إلى ارتباطه مع مرور مكة من أجل القيام بسحب السيارات المخالفة في الطرقات المزدحمة، أو بجوار الحرم، ما جعل النقطة تنحرف إلى دلالة جديدة، تتناسب مع المرور، إذ شاع بين السائقين أن "أبو نقطة" شركة مرورية منتسبة للنقطة، أي المركز المروري، وقد ألّفت عليه لوحات إرشادية تحذّر من الوقوف، عليها علامة أبو نقطة التي تم رسمها لهذا الغرض، حيث توضع على السيارة المخالفة نقطة في إشارة إلى نوع القسيمة المرورية، إذ تدل النقطة على الوقوف في المكان الخاطئ.

نجح أبو نقطة في مهمته الجديدة وكان من أثر هذا النجاح تركه للعمل في حي التشاليح الشعبي والاستثمار داخل المدينة، وهذا بدوره جعل اسم ابو نقطة علامة من علامات المرور في مكة، ومكّنه ذلك من استثمار موسم الحج في المشاركة في حركة السير.

في المقابل صرف مسلط نظره عن الغرفة القديمة بعد أن علم بقرار اللجنة التي لم تصنّف غرفته ضمن الشركات الصناعية ،و ذلك بعد جولة

تفتيشية حيث قررت أنها مجرد غرفة لتجميع قطع السيارات التالفة، كما أن موقع الغرفة لا يصلح لاعتبارها شركة صناعية أو مؤسسة تجارية، فالحي الرضواني مغلق من جميع الجهات عدا جهة واحدة ومن الشروط المتبعة في تصنيف الشركات والمؤسسات أن تقع على شوارع تجارية فسيحة. هذا الشرط الأهم الذي فات مسلط مراعاته، ولم يكن بيده من الأساس تجاوزه؛ بسبب طبيعة الحي الجغرافية، لكن مسلط لم يخسر الفكرة التي نقلها إلى شركته الجديدة في جدة، وهي الشركة التي كان قد بدأها مع السمطي، وفور انفصالهم، بدأ في توسيع رقعته التجارية في حي بريمان، تاركا شركته الفرع في حي التشاليح بمكة.

لم يمض زمن طويل على قرار تأجيل مشروع النفق الجبلي حتى فوجئ أهل الحي بلجنة الإزالة ممثّلة في مندوبيها تضع الأرقام على البيوت في إشارة إلى قرب موعد البدء في تنفيذ المشروع، وهي اللحظة التي سماها المستكاوي "ساعة الاحتضار"، حيث بدا له أن الحي يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفي سباق مع الزمن راح يتجول، كعادته حين يشعر بقرب انتهاء الأشياء، في أزقة الحي، يعد البيوت بيتا بيتا، إلى أن انتهى تجواله من حيث بدأ، تحديدا عند مشتله الذي جاوز أن يكون مشتلا إلى كونه مزرعة تحتوي على كثير من النباتات المختلفة، بالإضافة إلى ركن خصصه للنباتات الجبلية التي غرسها في آنية فخارية.

شعر المستكاوي، وهو يودّع الحي ،قبل أن تعلن شركة الإزالة البدء في العمل، أن كل الأشياء أعلنت استسلامها، المباني والناس، عدا مشتله الذي ظل ينمو و يتسع حتى اخضرّ طرف الجبل الشمالي من الحي.

نظر إلى مزهر "شجرة اللوز" فرأى أغصانه المتفرعة، وثمار اللوز تتدلى بمختلف أشكالها، فشعر بفرح غامر؛لعلمه أن هذه الشجرة بالذات لن يمسها التغيير، فقد حسب لهذا الأمر حسابه حين غرسها في أقصى مكان باتجاه الجبل الشمالي الذي سيحاذيه كتف الجسر المعلق. قال في نفسه :

"ستبقى شجرة اللوز شاهدا على الحي، تلوّح للطريق الساحلي بأغصانها، فيما هو يعبرها كما كان غنيم الساحلي يعبر الحي بصمت". بدت هذه الفكرة للمستكاوي ماثلة أمامه وهو يتأمل شجرة اللوز الباسقة. قال حينها، وهو يهمس بينه وبين نفسه:

"يكفي الإنسان سعادة أن يترك أثرا بعد رحيله، وهذه الشجرة ستكون بمثابة العلامة على أن حيًّنا قاوم حتى آخر لحظة. حين نَعْبُر، مستقبلا، من فوق الجسر، سيكون بإمكاننا تحديد مكان الحي بهذه الشجرة، وسنسلِّم عليه كما نسلم على الموتى في قبورهم. نعم، مزهر، الذي رحل أيام الطفولة ،عاد في صورة هذه الشجرة نابتا من رحم الأرض، في المكان نفسه الذي جعله نساء الحي مصدر الصوت القاتل، وهذا يكفي لجعل مزهر غصنا أخضر لا ييبس، وذكرى حياة حافلة لا تموت".

طفرت دمعة ساخنة من عين المستكاوي، فبدا، هذه المرة، غير ذلك الذي يأخذ الأمور بالهزل والبساطة والتنكيت على الرفاق. ربما كانت حالة شجن نادرة، أو هي كذلك بالفعل، فالمستكاوي يعرف أنه، في مدة قصيرة، سيقتلع جذوره من المكان كما تُقْتَلَعُ النيمة الكبيرة حين يراد إزالة البيت الذي يستظل بها. يذكر أنه رأى نيمة خاله وهي ملقاة على الطريق، حين قرر خاله إزالة بيته. أدرك حين رأى عظم جذورها أن زمنا مديدا اقتلع من أعماق الأرض، وها هو اليوم يلاقي المصير نفسه، ينتزعه قرار الإزالة من تراب الحي ليغرسه في تراب آخر. كيف يمكن له أن ينبت؟. تجربته غير القصيرة مع الغرس علَّمته أن لكل نبتة مناخها وترابها، لكن هل ما يَصْدُق على النبات يَصْدُق على الإنسان؟ لا يدري. كل الذي يحسه الآن رغبة في التشبث بتراب الحي، عودة إلى منابت الحياة الأولى في الشعب المكي قبل أن تطأه أقدام العابرين، وهي الفترة التي كان يجسُّها بمخيلته حين يتحدث مع الرفاق عن بدء تكوين الحي، وكان كثيرا ما يهجس بها في خلوات الليل. دعاه هذا الشجن إلى الحديث مع شجرة اللوز باسم صديقه مزهر:

"تعرف، يا مزهر. أمي تقول إن الحي كان شعبا خاليا إلا من بيوت قليلة نابتة على أطرافه، وقد كبر شيئا فشيئا حتى بلغ إلى هذا الحد. كنت حين تحدثني عن بدايات حينا أرى من خلال حديثها موقد النار، فأشعر بالبرد. أتمنى أني كنت في تلك الفترة موجودا ألتقط من قصص كبار السن وحكاياتهم حول النار ما يشعرني بالدفء. كنت أتخيل الشارع الذي يخترق

البيوت الآن مسيلا يحتضن الحيُّ تربته الناعمة، وأرى كبار السن وهم يدبون بسكون في الشارع الخالي إلا من نباتات الشعب الطبيعية. كبر حينا، يا مزهر، ضجت فيه الحياة حتى تجشأ من الشبع، وهو، الآن، يحتضر. بعد أيام قلائل ستبدأ معاول الجرافات في هدم البيوت ، ستتساقط على رؤوسها الخاوية، وستلقى أنقاضها في البحر، من أجل أن يعبر الطريق الساحلي من أمامك متجها إلى ماوراء جبل الحي".

لم ينتبه المستكاوي أنه غاب داخل أعماقه إلا حين تدلى إليه صوت بالكاد طرق سمعه. التفت، فإذا أحد أعضاء المشتل يسأله باستغراب:

– مع من تتحدث؟ أراك تهمس بصوت واضح.

– أتحدث مع نفسي. أنت تعرفني حين أخلو في المشتل، لا شيء يسليني أكثر من أن أشعر بالنبات كما أشعر بالإنسان، وهو ما قلته مرارا، وتعلمته من الفلاح الذي التقيته في الهدا:

"تحدث مع غرسك مثلما تتحدث مع عرسك ، فالنبات الذي نتحدث معه لا يموت".

– لكن الحي كله سيموت ، فالجرَّافات في الطريق.

– و هذا ما دفعني للحديث؟

– ماذا كنت تقول؟

– كنت أقول لمزهر:

"حين نعبر من فوق الجسر سنسلم عليك كما نسلم على الموتى".